علي الجارم

فارس بني حمدان



علي الجارم

فارس بني حمدان

سرى موكب الدنيا يشيد بذكره
وينقل للأسماع روعة شعره
حسام بكف الدهر قد سل حقبة
وأغمده ريب المنون بقبره
بدر الدين علي الجارم



دار المعارف بمصر

١٩٦١

١

ـ بالله عليك لاتطيلى يا ليلى ، فإنّ مما يُثير شجون النفس ، ويَزيد فى ألم الحزين ، أن يُدفع إلى العزاء والصبر ؛ بكلمات خاوية متخاذلة حفظها الناس لينثروها فى كل مأتم . إنّ كل كلمة من هذه يا ليلى شعلةٌ تؤجج وَجْدى ، وتضطرم فى فؤادى . إنّ الحزن حرَمٌ قُدْسىّ يجب أن تخشع أمامه الرءوس بالصمت والإطراق .

ـ ولكنك يا سيدتى « سَخينة » تكادين تقتاين نفسك حرَضاً [١] ، وتعصفين بها همّاً . فقد مرّت أيام سبعة منذ دَهَمَنا الخبر المشئوم لم يَرْقأ لك فيها دمع ، ولم تهدأ نفس ، ولم يطمئن بك فراش . إنّ لنا فى الله ثقةً يا سيدتى . وماذا نصنع وقد مزج الله بالحياة معنى الموت ، وبالموت معنى الحياة؟ نحن ياسيدتى فى زمن مضطرب لا يركدُ عَجاجه [٢] ، ولا تسكُن سيوفه فى أغمادها ، بعد أن انحلّت أواصر بنى العبّاس ، وأصبحت دولتهم أشلاءً [٣] ممزّقة ، يفترسها كل مفترِس ، ويُغير عليها

---

(١) الحرض : الحزن القاتل والهم الشديد .

(٢) العجاج : الغبار والدخان .

(٣) الأشلاء : جمع الشلو (بكسر فسكون) وهو العضو ، وأشلاء الإنسان : أعضاؤه بعد البلى والتفرق .

كلٌّ واثب . فى كل أرضْ حرب مشتعلةُ الأوار[١] ، وفى كل دار أنين وبكاء ، ولن نملك نحن النساءَ إلا أن نردّد قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

ولولا كثرةُ الباكين حولى على قتلاهمُ لقتلتُ نفسى
وما يبكون مثلَ أخى ولكن أعزّى النفسَ عنه بالتأسّى [٢]

– وهذا أعجب ما قيل فى العزاء . إن الحزين الذى يتسلى عن مصابه بمصائب غيره لمأفون[٣] الرأى سقيم العاطفة . والنفس التى تهدأ للكوارث تحلّ بسواها ، وتستريح فى نكبتها لأصوات النادبات وعويل الباكيات ثم تنسى النار التى تلتهم دارها لأن لهيبها اندلع فى كل دار ، لنفس شرِّيرة حَقُود . .

– ليس الأمر كما تظنين يا سيدتى . وإنما هى طبيعة بنى الإنسان تعبِّر عنها الشاعرة ، فالحزين يتأسّى بالحزين ، والغريب يُسْعِدُه الغريب . وقد طُبعت النفس على أن تستهين بمصابها عند نزول المصائب العظام والفوادح الجسام ، وقد يقيس المرء مصيبته بمصيبة غيره فيحمَدَ الله على السرّاء والضرّاء .

---

(١) الأوار : لهب النار وحرها .
(٢) التأسى : مصدر تأسى ، أى تعزى وتصبر .
(٣) مأفون الرأى : ضعيف الرأى فاسده .

— هذا كلام بعيد عن الإقناع يا ليلى ، لأنى أبكى زوجاً كان قليل الأنداد[١] فى الأحياء ، فأصبح قليل الأنداد فى الأموات ، فليس إلى التعزّى فيه من سبيل . فعلى أبى العلاء فليجزع الصبر ، وعلى سعيد فلتبك البواكى . ثم أطرقت إطراقة طويلة ، وأخذت تهزّ رأسها فى وجوم .

كانت سخينة فى نحو الخامسة والثلاثين ، صبيحة الوجه ، جميلة الطلعة ، فارعة الطول ، ممتلئة الجسم . امتزج فى تكوينها الدم العربى بالسّلالة الرومية ، فجاءت صورة بارعة للملاحة العربية ، والجمال الإغريقى معاً . وكانت تجلس فى ذلك اليوم ، وهو الحادى والعشرون من رجب سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، فى إحدى حُجُرات قصرها الذى امتاز بين قصور مَنْبِج (إحدى مدن الشام) بضخامة بنيانه ، وارتفاع شُرُفاته ، وروعة زخارفه . وكان يقوم فوق أكمة بالشمال الغربىّ من المدينة ، بالقرب من « عين المرج » بين الخمائل الزُّهْر[٢] ، والحدائق الفيح[٣] ، يحيط بكل ذلك سور ضخم سامق بُنى بالحجر الصَّلْد ، ورَبض فى كل ركن من أركانه حِصْن منيع الذُّرا ، يكاد يَجْبَهُ[٤] الدهر ، ويتحدَّى نوازل الأيام . أما القصر فكان آية من آيات الفن

---

(١) الأنداد : الأقران والنظراء .

(٢) الزهر : جمع الزهراء ، وهى ذات الحسن والرونق والبهاء والإشراق .

(٣) الفيح : جمع فيحاء ، أى واسعة .

(٤) يجبه الدهر : المراد يقهره ويذله ، من جبهه ، أى ضربه على جبهته .

الإغريق فى اتساع حجراته وأبهائه ، وعظم أعمدته التى نُحتت من الرُّخام الأبيض الناصع اللمَّاع ، وفخامة أثاثه ، وجمال سقوفه وما زُيّنت به من النقوش والصور ، التى تعاون المال والفن الرفيع على أن تكون شَرَكاً للعيون ، وفتنة للعقول . وكان القصر يموج بمن به من الجوارى ، يذهبن فى أنحائه هنا وهناك ، وقد غشّت وجوهَهن سحابةٌ من الحزن الصامت المكبوت[1] .

كان هذا القصر لأبى العلاء سعيد الحمدانى عظيم أسرة بنى حمدان وشاعرها وفارسها المُعْلَم ، الذى هابته القبائل النازلة بالشام والموصل ، واستجدت عونَه الدولة العباسية وهى تترنّح[2] للسقوط ، واتخذت من شجاعته درعاً تقيها صولاتِ الأمراء الطامحين .

رفعت سخينة رأسها بعد طول الإطراق ، ونظرت فى وجه وصيفتها ليلى نظرةَ الذاهل المأخوذ وقالت :

ــ إنّ ابنى حسيناً يصل من الموصل اليوم . فلعلنا نقف منه على جليّة الأمر فى مقتل أبيه .

ــ إنه لن يُعَوَّق يا سيدتى ، لأنه أرقُّ قلباً من أن يتركنا طويلا بين حُرْقة الحزن ومرارة الانتظار .

---

(١) المكبوت : المكظوم ، المكتوم .

(٢) تترنح : تمايل .

ثم أخذتا فى الحديث فى مآثر سعيد وجوده وشجاعته ، وذكرت ليلى مواقعه اللامعة ونصره المؤزّر[١] الحاسم على بنى كلاب وبنى النضير ، وما كانت إلا ساعة حتى سُمِعت جلبة وضَوْضاء ، ثم فتحت أبواب القصر ، ودخل الحسين بن سعيد يمتطى جواداً أشهب[٢] ، كاد يُضنيه طول السفر وبعد الشُّقة[٣] لولا كرم عربىّ فيه أنِف أن ينال منه التعب أو يمسَّه اللغوب[٤] .

وكان الحسين شابًّا فارهاً[٥] طويل نجاد السيف ، وسيم الوجه ، قوىّ البناء ، لم يجاوز العشرين ، فوثب من فرسه ناشطاً إلى القصر ، وأسرع إلى أمه يقبّل يديها ورأسها فى حنان امتزج فيه البر بالحب ، والشغف بالإشفاق ، وكان حزين النفس مُثْقَل الكاهل بالهموم ، ولكنه حينما رأى وجه أمه ، ولمح ما ارتسم فيه من سطور الحزن الأليم ، والهلَع القاتل ، أسرع فبسط قليلا من أسارير وجهه ، ومحا من عينيه دمعتين تحيَّرتا فيهما بين الانهمال والجمود ، ثم جلس إلى جانبها وأخذ يُدلّلُها — كما يُدلّل الطفل الجازع — بعبارات أرقّ من الدموع . وانطلق يقول

---

(١) المؤزر : القوى الحاسم .
(٢) أشهب : من الشهبة ، وهى البياض الغالب على السواد .
(٣) الشقة : الطريق ، والمسافة ، والسفر البعيد .
(٤) اللغوب : التعب والإعياء .
(٥) الفاره : المليح الحسن الوجه ، والنشيط الخفيف .

في صوت صادق النبرات لم يذهب الحزن برنينه ، ولم تهزّه عواصف الشجون :

ـ لقد كان السفر شاقًّا يا أماه ، وكانت الطرق وَعْرة طويلة على الرغم من أننا كنا نطوى المراحل كما يطوى البرقُ معصرات[1] الغمام . وقد وثب علينا فى الطريق جماعة من بنى تميم أطمعتهم فينا قلة العدد وكثرة الغنيمة ، فما كان إلا أن جرّدتُ سيفى ، ودعوت أصحابى إلى الوثوب ، حتى فرّوا كما يفرُّ الأمن من قلوب الجبناء .

ـ أنت يا ولدى ابن أبيك حقًّا . ولكنّ هذه الشجاعة يا حسين هى التى أيتمت أبناء بنى حمدان ، وأيّمت[2] نساءهم . انظر اليوم ماذا سيكون من شأن أخيك الحارث أبى فِراس ، وقد تركه أبوه فى غضارة[3] الطفولة ، يتعثر فى سنواته السبع .

ـ إن اليُتم فى سبيل الشرف عزّة وكرامة . إنّ أبطال بنى حمدان يموتون ليحيا أبناؤهم ، وإنّ ذلك المجد الباذخ ، وتلك الصولة العاتية التى ملأت العراق والشام رعباً ، لم تكن إلا صدًى لقبور الشهداء من بنى حمدان ، الذين سقطوا فى الميدان بعد أن تحطّمت سيوفهم فى سبيل

---

(١) معصرات الغمام : السحب الماطرة .

(٢) أيمت نساءهم : جعلتهم أيامى ، جمع أيمى (كسكرى) وهى المرأة التى مات عنها زوجها .

(٣) غضارة الطفولة : رقتها ولينها .

الشرف والبطولة . إننى يا أماه سأحيا بأبى ، وسيحيا فىّ أبى ، ولن يقول الناس إنّ ابن سعيد مات أبوه فبَخَعه[١] الحزن ، وجلس فى إحدى زوايا قصره يبكى كما تبكى الإماء[٢] . لا . لا . إن مجد بنى حمدان باق على الدهر ، وهو سرّ قدسىّ يحفظه الأجداد للآباء ويصونه الآباء للأبناء . أما أبو فراس . . . . ثم أطرق قليلا ورفع رأسه وقال :

فلن أعلم ولن تعلمى ما سيكون من أمر هذا الطفل اليتيم . ولكنى لا أستطيع أن أشك فى صدق ظنونى فيه . وإذا دلّ الفِرِند[٣] على كرم السيف ، ونمّ الغصن على طيب مَنْبِته ، فإن مخايل أبى فراس تنبئنى بأنه سيكون بطلا ، وأنه سيترك فى الدنيا دويًّا . إن هذا الطفل أعجوبة الأعاجيب ! إنه وهو فى السابعة يبهرُك برأى أصيل ، وعزم صليب ، وقلب لم يعرف الرعب ، ولم ينل منه الفزع ، إنك ترين فى عينيه نبل محتِده[٤] ، وقوة نفسه ، وكرم خِيمه[٥] . وإن فى ابتسامته الهادئة المشرقة أشعةَ من الآمال الجسام ، التى تسخَر من الدهر ، وتطمح إلى عظائم الأمور . هذا الطفل الصغير يا أمى عصارة المجد الحمدانىّ ، وملتقَى

---

(١) بخعه الحزن : أهلكه أو نهكه وأضناه .

(٢) الإماء : جمع الأمة ، وهى الخادمة والمملوكة .

(٣) فرند السيف : جوهره و وشيه .

(٤) المحتد : الأصل .

(٥) الخيم : الطبيعة والسجية .

عناصر قوّته . فسالت الدموع من عينى سخينة وقالت :

ــ صدقت يا حسين . لقد رأيته أمس من نافذة حجرتى ، وهو يقود جيشاً من أترابه[١] أبناء حرّاس الحصون ، وقد حمل بيمينه غصناً كان يسمّيه الصارمَ البتّار ، وثب به فى خفة النّمِر على من زعمهم أعداءه ، فبدّد شملهم جميعاً ، ثم صعد إلىّ فى صَلَف الشجاع المنتصر يحدّثنى بأخبار الموقعة ، وما ظفِر به من أسرَى وغنائم ، ولكنه أجّج نار أشجانى حينما سألنى عن أبيه ، فلما قلت له : إنه ذهب إلى بغداد ليحارب أعداء الخليفة أمال رأسه فى شمم واعتداد وقال : لِمَ لَمْ يأخذنى معه ؟ إننى أحبُّ الحرب وأهوَى النضال ، وإن هذه الحرب الصوريةَ بين هؤلاء الصبية لا تَشْفِى من نفسى غليلا . وحينما أبصر دمعتين تطفران من عينىّ قال : أنت لا تحبين الحرب لأنك لم تتذوّقى نشوة الانتصار ! فأسرعت وقلت : إن الناس يموتون فى الحرب يا بُنَىّ ! فأخذه الضحك طويلا ثم قال : الموتُ خيرٌ من حياة كحياة جاريتى هيلانة التى دخلت حجرتَها نحلةٌ بالأمس فطارت نفسها هلعاً ، وملأت جوانب القصر صياحاً وضجيجاً .

ــ إنه كما قلتُ لك أعجوبة الأعاجيب ، وصورة صادقة من أبيه ، وإنّ أمًّا تسعَد بمثله ، وتترقب ما ينتظره من مراتب العظمة وبعد المنزلة ،

---

(١) أتراب المرء : لداته ، ومن كانوا فى مثل سنه ، المفرد ترب (بكسر فسكون)

جديرة بألا يجد الحزن إلى قلبها سبيلا . إن أبى لم يمت يا أمى ، وإنما تجدد شبابه فى وفى أخى أبى فراس . ثم طفق ينشد من قصيدة بشامة النهشلى :

إنّا – بنى نهشل – لا ندّعى لأبٍ عنه ، ولا هو بالأبناء يَشْرينا[1]
إن تُبتَدرْ غايةٌ يوماً لمكرُمة تلقَ السوابقَ منا والمصلّينا[2]
وليس يهلكُ منّا سيّدٌ أبداً إلا افتلينا غلاماً ناشئاً فينا
إنا لَمن معشر أفنى أوائلهم قيلُ الكُماة : ألا أين المحامونا ؟[3]
إذا الكماةُ تنحّوْا أن يُصيبهم حدَّ الظُّبات ِ، وصلناها بأيدينا[4]

لقد مات أبى ميتة الكريم الشجاع ، كان يجود بنفسه وسيفُه فى يمينه يضرِب به ذاتَ اليمين وذات الشمال .

– قل لى كيف مات بحقك ؟ فزفر زفرة طويلة ، وأطرق إطراقةَ المفكر الحائر كأنه يريد أن يجمع شوارد نفسه ، أو أن يتخلّص من الظنون التى كانت تُغاديه وتُراوحه منذ شهد المعركة ، وقال :

---

(١) ادعى المرء إلى غير أبيه : انتسب . ويشرينا : يبيعنا .
(٢) ابتدر القوم غاية : تسابقوا إليها . والسوابق : جمع السابق وهو أول خيل الحلبة ، ويقال له أيضاً المجلى ، ويريد بالسوابق : السباقين منهم إلى المكرمات . وصلى الفرس : تلا السابق وتبعه ووصل إلى الغاية فى أثره ، فهو المصلى . ويريد أنهم يستأثرون بالمكرمات كلها ، فهم السابقون ، ومنهم المصلون .
(٣) الكماة : جمع الكمى ، وهو الشجاع المدجج بالسلاح . والمحامون : المدافعون .
(٤) الظبات : جمع ظبة ، وهى حد السيف والسنان ونحوهما .

— تعرفين يا أماه ما كان بين أبي والخليفة الراضي العباسيّ من أواصر المودّة ، وتعلمين خبر تلك الرسالة التي أرسلها إليه الخليفة منذ ستة أشهر ، يستدعيه إليه ، ويتعجّل رحيله ، ويشير فيها في خفاء وإبهام إلى أنه في حاجة إلى عونه ، والاستظهار به[1] على أعدائه من الترك والعرب . وقد كان أبي إلى إجابة الخليفة أسرعَ من رجع الصدى كما تعلمين . فرحلنا إلى بغداد في قلّة من عبيدنا ورجالنا ، فلما وصلنا إلى دار الخلافةِ لقيَ أبي من الخليفة من صنوف الإكرام ، وحسن الوِفادة ، وتقريب المنزلة ، ما ملأ قلوب الحاشية حقداً وضغناً . وفي ذات ليلة همس أبي في أذني بأن الخليفة ولاه إمارة الموْصِل وطلب منه السفر إليها بعد يومين .

— يولّيه إمارة الموصل وهي في يد ابن أخيه ناصر الدولة ! هذه مكيدة خسيسة من هذا الخليفة الضعيف الماكر ، يريد بها أن يُوقع العداوة والبغضاء بين رجال هذه الأسرة الباسلة ، التي أقضّت مضجَعه ، وأخذت تبتّر أوصال مملكته في العراق والشام ، فلم يجد هذا الخبيث من وسيلة إلا أن يُغرى أبناء العمومة بعضَهم ببعض ، وأن يحاربهم بسلاحهم ، ويطعنهم برماحهم ، فإذا انتصر أحدهم على أخيه هلّل له وكبرّ ، ونثرَ فوقه أزهار المديح والثناء ، وهو يرى في دخيلة نفسه أنه قد استراح من

(١) الاستظهار : الاستعانة .

فريق عظيم منهم ، وأنّ الفرصة ستواتيه للقضاء على الفريق الآخر . هكذا أصبح دأبُ هؤلاء الخلفاء منذ دالت دولتهم[١] ، وأصبحت نهباً مُقسَّماً بين الأمم ، فإنهم حين فقدوا سلاح القوة ، برعوا فى الكيد والحيلة . والضعيفُ دائماً يستعير لنفسه قوةً من نَصْب الأشراك ، ودس الحبائل .

– هذا ما استطعت أن أبوح ببعضه لأبى ، لأنك تعرفين ما كان له من الهيبة وعُنْف الشكيمة[٢] التى تعقل اللسان دون مخالفته ، فما كان منه إلا أن قال فى استنكار وغضب : ماذا تريد يا فتى ؟ أتريد أن تقول إن الخليفة لا يملك عزل أمير وتوليةَ أمير ؟ أتريد أن تقول إنه أصبح من الضعف والخوَر بحيث لا تتجاوز أوامره جدران قصره ؟ نحن يا بُنَىَّ خدّام الخليفة ، وعُدّته فى الشدائد ، وقد بقيت الخلافة فى أبنائها إلى اليوم بأسنَّة بنى حمدان وسيوفهم . إن ابن أخى ناصر الدولة لا يملك إلا أن يطأطئ رأسه لحكم الخليفة .

– فهل طأطأ رأسه حقًّا ؟

– لا أدرى . وقد ساورتنى فى هذا الشأن شكوك مبرِّحة اضطرب لها ميزان عقلى ، وكادت تقضى علىّ . فتنهدت سخينة ولمع فى عينيها لهيب

---

(١) دالت الدولة : انقلبت وأدبرت .

(٢) الشكيمة : الطبع .

الغضب وقالت : امض فى حديثك يا بُنىّ .

ـ أتظنين أن لابن عمى يداً فى مقتل أبى ؟

ـ امض فى حديثك يا حسين . قاتل الله المناصب ، وقاتل الله الجشع ، وقاتل الله الحرص الذى أذلّ أعناق الرجال ! إن إدراك المسألة سهل هيّن ، ما كان ينبغى أن يخفىَ على أبيك . ذلك أن الراضى جشعٌ ماكر ، وقد حرمه ناصر الدولة خيرات الموصل وذخائره واستأثر بها دونه ، ولم يبعث إليه منها شيئاً . وكانت جبايتها أيامَ المأمون آلافَ الآلاف من الذهب والفضة ، فأراد الخليفة أن يجعل من أبيك شبكة لاصطياد هذه الأموال على أن يُلْهيَهُ بقليل منها ، وأحسّ ناصر الدولة بأن الغنيمة ستطير من يديه ، فثارت نفسه ، وصمّم على الاحتفاظ بها ولو قتلَ فى سبيل ذلك أعز الناس لديه . وأكبرُ ظنى أن عيونه وجواسيسه بدار الخلافة طيّروا إليه الخبر فأخذ له الأهبة ، وأعدّ له العُدّة . امض فى حديثك يا حسين .

ـ غادرنا بغداد فى خمسين رجلا . . .

ـ فى خمسين رجلا ؟ يا له من جيش لُهام(١) !

ـ نحن لم نذهب لحرب ، ولم نتحفّز لقتال ، ولكنا ما كدنا نصل

---

(١) جيش لهام : كثير عظيم .

إلى مشارف الموصل حتى خرج علينا كمين فى غبَش الظلام عدّتُه نحو خمسمائة فارس ، فأحاط برجالنا من كل جانب ، وجال أبى بفرسه ليخترق ثغرة فى صفوفهم ، ولكنهم تواثبوا عليه وخزاً بالرماح ، وضرباً بالسيوف ، وهو ينثر رءوسهم بسيفه كما ينثر الزارع الحبّ ، ويكرُّ هنا وهاهنا كما يكرّ النمر اليائس حتى تمزّقت درعه ، وصبغتها الدماء . وقد عمدْتُ إلى قائد عصابتهم فرميته بسهم فسقط تحت سنابك الخيل ، وأسرعت إلى أبى وقد أثقلته جراحه فحملته إلى المؤخرة ، ولم تمض لحظات حتى لحِق بآبائه الشهداء .

فبكت سخينة طويلا ثم رفعت رأسها وقالت : وبعد موته رحل هذا الجيش المغير ، ولم يستأصل بقيتكم ؟

— نعم .

— وهل بعد هذا تبقى عندك خلْجة[1] شك فى أن المكيدة أعدّت لأبيك ، وأن الذى أعدّها هو الذى يخشى من مزاحمة أبيك ؟

— إن لأبى أعداءً كثيرين يا أمى ، وإن شجاعته لم تترك قبيلة إلا ولها عنده ثئور .

— ظنَّ كما تشاء يا حسين . أين دفنتموه ؟

---

(١) خلجة : اسم مرة من خلج بمعنى تحرك واضطرب والمراد بخلجة الشك : أقله وأيسره .

— دفناه فوق هَضْبة شرقيّ مدينة الموصل تحت شجرة زيتون .

وبينما هما فى الحديث إذا صياح وَجَلَبَة فى بَهْو الدار ، وخادمةُ أبى فراس « هيلانة » تهرول وهى تلهث وتتمتم بكلمات ارتطمت فيها العربية بالرومية ، وأبو فراس يعدو أمامها راكباً رمحاً انتزعه من حائط كان معلقاً به واتخذ منه جواداً كريماً حتى دخل الحجرة التى بها أمه وأخوه ، وهو يصيح :

— هذه الجارية البلهاء تستنكر على مثلى أن يمتطى جواداً . لقد كان أبى يُحب هذه اللُّعبة ويعِدُنى بحصان حينما أبلغ التاسعة ، أين أبى يا حسين ؟

— أبوك فى مكان عال تتلاقى فيه الرياح ، وتجوده أخلاف[1] الغمام.

— ولِمَ لَمْ يعدْ معك ؟

— إنه لو استطاع أن يعود لعاد ، ولكنّ الحرب أبت إلا أن تقتَضيه دَيْنَ الشرف والبطولة .

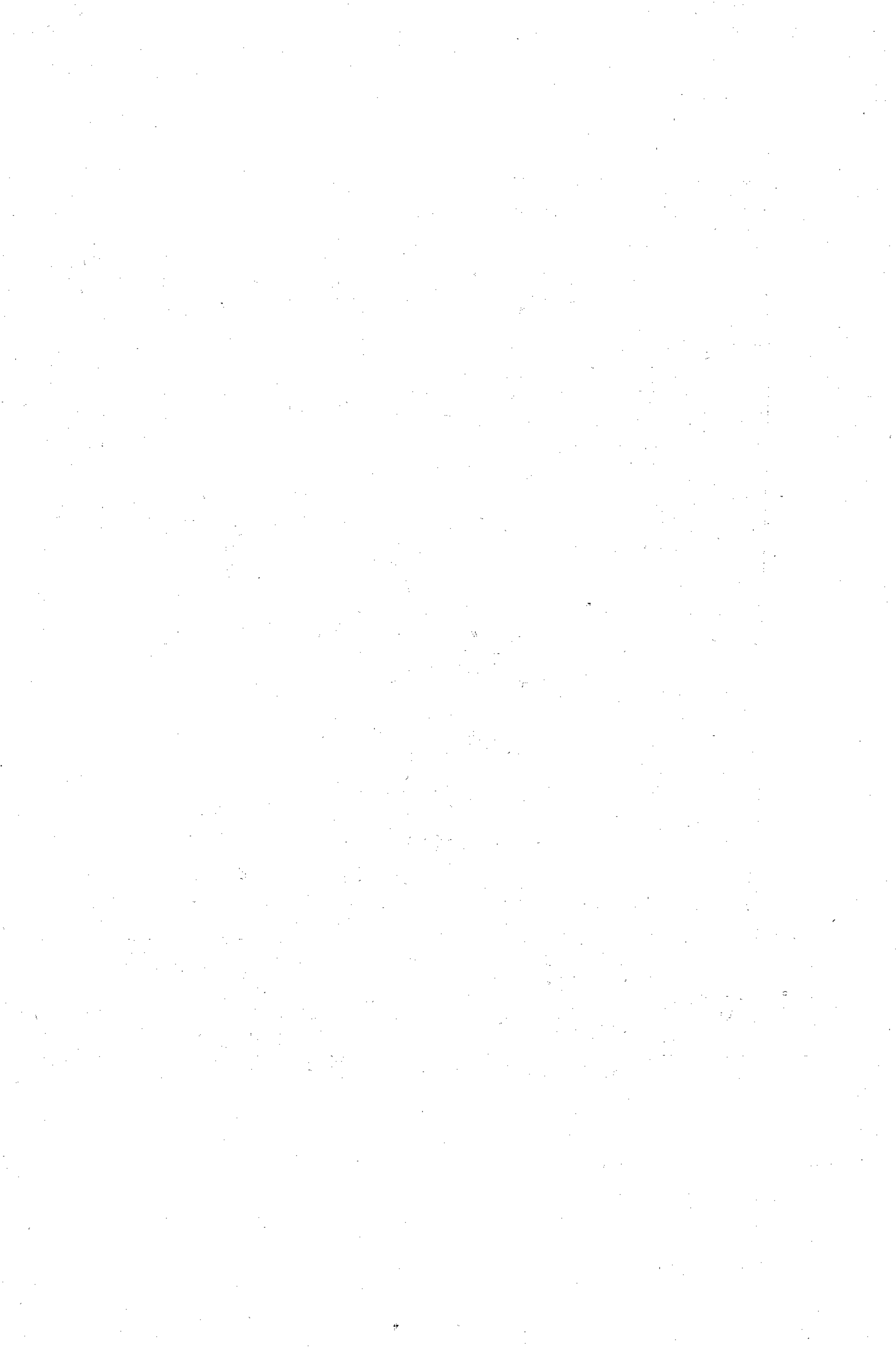
— وما دَيْنُ الشرف والبطولة ؟

— الموت ! فهزّ الطفل رأسه وهو يغمغم :

---

(١) تجوده أخلاف الغمام : تسقيه السحب الماطرة ، على تشبيهها بالناقة . وأخلافها : حلمات ضرعها ، المفرد خلف (بكسر فسكون) .





ـ الموت ! الموت ! الموت دين الشرف والبطولة ! ثم حملق فى وجه أخيه وقال :

ـ والثأر أيضاً يا حسين دَينُ الشرف والبطولة ! إنه ماحى العار ، ومخمد النار ! ثم انطلق يعدو بجواده فى أنحاء القصر لم تَدمع له عين ، ولم يبُح صدره بزفرة أنين .



٢

تابع الفلَك دورته ، وتعاقبت سنواتُه ، والأمير الصغير فى كل يوم تتفتح مواهبه ، وتتجلّى مخايله ، كالزهرةِ تُحس بأنفاسِ الربيع فتتخايل فوق غصنها ، وكالنجم يمتد به الليل فيزيد تألُّقاً وسطوعاً . وليس من شك فى أن الطفل صورة من الوراثة والبيئة ، فإذا اجتمع فى ناشئ كرم المَنْبِت ، وسلامة الطبع ، وصحة الجسم ، وحسن الإشراف ، كان مثلا عالياً للإنسانية الكاملة . وأميرنا أبو فراس قد فاز بكل هؤلاء ؛ فكان جديراً أن تُعقد به الآمال ، وأن تترقَّبَه مناصب الرياسة ، وتتهيّأ له صدور المحافل .

نشأ فى كَنَف أخيه الحسين ، وفى رعاية أم رءوم[1] تظلُّه بجناحها ، وتغذوه بحنانها . وكان الحسين يُثير فى نفسه الاعتزاز بقومه وبتاريخه المجيد ، ويحفزه إلى العظمة والسيطرة والبطولة . ولم تقصِّر حاضنته عائشة النزارية فى الرمى نحو هذه الغاية ، فإنها رأت جذوة فى نفسه فطفقت تنفخ فيها حتى تركتها شُعلة متأججة ، تقذف بالشرر . وكثيراً ما كانت تجلس إلى جانب سريره عند ما يأوى إلى فراشه ، وتقص عليه سيرَ

(١) رءوم : ذات عطف وحنان .

أجداده ، ومآثر آبائه ، بأسلوب يهزّ العاطفة ، ويُثير الوجدان . فهى إذا تحدّثت عن حمدان جَدّ هذه الأسرة ، أخذت تجلو من أخبار شجاعته ومروءته صوراً امتزجت فيها الحقيقة بالخيال ، وتذكر كيف أنه أبى أن يخضع للمعتضد العباسىّ ، وأن يُلقىَ إليه بالقياد ، فاقتطع من أملاك الدولة العباسية إمارة « ماردين » ونادى بنفسه عليها ملكاً مستبدّاً ولم يبال ما كان للمعتضد فى ذلك الحين من دولة وصولة . ثم تصف ما كان بعد ذلك من غضب المعتضد وحَنَقه على هذا العربىّ الثائر ، وكيف أنه بعث إليه بجيش جرّار ، ولكنّ هذا الجيش ما كاد يلتقى برجال حمدان حتى منى بالهزيمة والخِذلان ، وعاد الخليفة بفلوله[1] مدحوراً ، ونارُ الغضب تأكل صدره ، فلم تهدأ له ثائرة حتى رماه بجيش آخر لا يعرف أولُه أين آخره ، ولكنّ حمدان كان إلى شجاعته وتحدّيه الموت ذكيًّا واسع الحيلة ، يُقدِم — كما يقول عنترة — إذا كان الإقدام عزماً ، ويُحجم إذا كان الإحجام حزماً ، فلما رأى أنه فى قلة من رجاله ، وأن فى المناجزة[2] إلقاء بيده إلى التهلُكة ، اتخذ الليل مركباً ، وسرَى فى ستار من ظلماته كما يسرى طيف الخيال ، لا تناله الأكفّ ، ولا تُبصره العيون ، وتراجع تراجع الليث ليثب ، وطلبه الخليفة فى كل

---

(١) فلول الجيش : بقاياه المنهزمة .

(٢) المناجزة : المبارزة والقتال .

مكان ، وبثّ وراءه العيون ، وأخذ عليه الطرق والمناهل [1] ، ولكنه كان شُعاعاً لا تمسكه يد قابض ، وسرًّا لا تدركه العقول . وكان أهونَ على الخليفة أن يصيد العنقاء ، أو يقتنص نجوم السماء ، من أن يحاول أن يمسّه بضرر ، أو يقف له على أثر . اختفى حمدان ، ولكنّ ذكاءه ونفاذ بصيرته لم يختفيا ، فأوعز إلى ابنه الحسين أن يصانع الخليفة حتى ينال بالحيلة ما رأت القوة أن تتركه إلى حين ، وقد كان رأيه صواباً ، فنال الحسين الحُظوة عند المعتضد فأغضى عن ثورة حمدان ، وأعاد إلى قومه ما كان لهم من نفوذ وسلطان .

تقصُّ هذا القَصص وأمثاله ، والطفل ذاهل مأخوذ حيناً ، وواثب من سريره أحياناً ، وكلما حاولت الانتهاء طلب إليها المزيد . وكأنه كان يستمدّ من أرواح أسلافه قوّة ، ويستلهم من سيرتهم عزيمة ، ويتخذ من تاريخهم غذاء لكبريائه .

وفى ليلة ألحّ عليها أن تحدّثه عن أبيه ، فنظرت إليه وأطالت النظر ، وقالت : أما أبوك فكان سيد بنى حمدان وأصدقهم رأياً ، وأثبتهم قلباً ، وأطهرهم نفساً . ولقد كان إذا ركب بين الفرسان فرَعهم طولا ، وبذّهم جرْأة وإقداماً ، وكان إذا عُدّ الأجواد أبسطَهم كفا ، وأرحبهم

---

(١) المناهل : الموارد والمشارب .

فِناء ، وأسبقهم نازعة إلى المعروف . أذكر ليلة حينما قدم من حلب من قتال بنى تميم . . .

— ومن بنو تميم هؤلاء ؟

— قبيلة قوية الشكيمة ، صعبة منال الزمام ، لا تلين أعناقها لحاكم ، تحدّت جيوش الخليفة المقتدر بالله العباسىّ ، فعاثت فى أعمال حلب ، فاستنجد الخليفة بأبيك وأخيه الحسين ، فبرزا إليها فى جيش خضمّ(١) ، ونشب بين الفريقين قتال مرّ المذاق . وحين قدم أبوك من هذه الحرب ، ذهب على الفور إلى حجرة أمك حزيناً مهموماً ، فظننّا أولَ الأمر أنّ الهزيمة لحقت بجيشه . وأخذت أمك بما وهب الله لها من لباقة ومعرفة بفنون الكلام ، تُرَفِّه عنه ، وتلوّح من بعيد بأن هزيمة الشجعان خير من انتصار الجبناء ، وأنّ النصر كالمرأة الفروك(٢) تجفو الرجل أحياناً ليتشبث بها ، ويزيد بها حبّاً وجنوناً . فالتفت إليها أبوك وَعبرَةُ الحزن لم تفارق وجهه وقال : ماذا تقولين يا سخينة ؟ ! لقد انتصرنا على بنى تميم وطاردناهم إلى مضاربهم . وهنا قفز الطفل من سريره صائحاً :

— حيّاكَ الله يا أبى ، وسَقْياً لجدّتك الطاهر ، لقد خفتُ يا عائشة أن يكون قد هُزِم أو أن يكون . . .

---

(١) جيش خضم : كثير جرار .

(٢) الفروك : المرأة تظهر لزوجها البغض والكراهية .

ففهمت عائشة ما تلجلج فى صدره ، وقالت فى غضب :

– إن أباك لا يعرف الفِرار ، ولو عرفه لكان بيننا الآن يملأ جوانب القصر حياة وقوّة ، ويُشيع فيه البهجة والسرور . إنه لم يفرّ فى آخرة مواقعه أمام خمسمائة فارس من العتاة الأشدّاء ، فقاتلهم حتى ضاق مجال فرسه ، وحتى تحطّمَ حُسامه ، فمات كريماً شهيداً . ثم عادت إلى حديثها الأول فقالت : وحينما علمتْ أملك بانتصاره قهقهت فى سخرية مصنوعة ، وقالت : وماذا إذاً يُحزنُ فارسنا المغوار ، ويشوّه من وجهه الوسيم ، بعد أن شتّت الجموع ، وعاد بالأسلاب والغنائم ؟ فاتجه إليها الأمير سعيد وقال : الذى يحزننى أننى بعد أن ركد غبار المعركة ، سألت عن تمَام القُضاعىّ وقد كنت شهِدته يجول فى ميدان القتال ويصول ، ويقذف بنفسه بين الكتائب كأنه أخذ على الموت عهداً ، فعلمت أنه قُتل ، فحزنت أشدَّ الحزن وأمضّه . ولم أحزن لأن رجلا قُتل ، فإنّ فى موت الشجاع فى الحوْمة[1] شرفاً لا يدرك معناه الجبان ، ولكنى أعلم أنّ له زوجاً وأمًّا عجوزاً وبُنيَّات أضعف من الثُّمام[2] ، وأوهن من أضغاث الأحلام ، كبراهن فى نحو الخامسةَ عشرَةَ . لذلك أسرعت عند بلوغى منبج إلى داره . وحينما قابلت أمه أخذتُ فى مواساتها فلم تزد على أن تقول :

---

(١) الحومة : ميدان القتال .

(٢) الثمام : نبت ضعيف لا يطول .

إن ابنى اشترى الجنة بحياته ففاز بالثمن الربيح . ولما حاولت أن أقذف بين يديها كيساً به مائتا دينار ، شَخصت عيناها واربدّ وجهها فى غضب ، وصاحت فى وجهى قائلة : رُحماك بنا أيها الأمير ! إننا لا نبيع رجالنا بالمال، وخير لنا أن نموت جوعاً من أن نجمع بين موت تمّام ومعرّة الأبد! خذ مالك أيها الأمير ، فإن فُتات الخبز فى ظل العزة والكرامة خير من موائد الملوك ، فبُهِرْتُ وأطرقتُ حزيناً، وخرجتُ من الدار حائراً مبهوتاً ، ثم اتجه إلى أملك وقال : ألا نستطيع أن نعمل شيئاً لهذه الأسرة يا سخينة ؟ إنّ لك طرائق فى التفكير ورثتِها عن أجدادك الروم لم تدع أمامك باباً من الرأى مغلقاً . فأسرعت أمك وقالت : هوِّن عليك أبا العلاء ، فإن الأمر جِدُّ يسير ، إننا نستطيع أن نزوِّج كبرَى بناته بأحد حرّاس القصر ، وأن نُمهرها بمائتى دينار ، ولن تجد العجوز غضاضة فى الأمر ولا حرَجاً ، بل تسرُّ لأن الأمير شرّفها بالإصهار إلى أحد حرّاسه . حينئذ تلألأ وجه أبيك بشراً وصاح : مرْحى بابنة أفلاطون مرحىَ ! لقد علمتُ أنك لا يُعوِزُك الرأى الأصيل ، والحيلة البارعة .

– وهل تمّ هذا الزواج ؟

– تمّ بعد شهر من قدوم أبيك ، وتزوج عمّار الحارس بصبيحة القُضاعية ، وأصغرُ أبنائها اليوم هو أسامة خادمك ، الذى تلعب معه فى حدائق القصر .

هكذا كان يغذّى الطفل بأحاديث البطولة ، وهكذا كانت تُثار حميّته إلى ترسّم خُطوات آبائه العظام . وقد وجدتْ هذه الأحاديث من نفس الطفل أرضاً خصبة ومَنبتاً طيباً فزادها خياله ضخامة وعِظما ، وكانت شغلَ نهاره ومسرَح أحلامه ، فطالما استبطأ الزمنَ الذى حال دونه أن يجرِّد سيفاً أو يشهدَ فى قَتام الخيل[1] واشتباك الرماح مشهداً .

ولما بلغ الرابعة عشرة وأجاد القراءة والكتابة ، قسمت أمه وقته بين مجلسين : مجلس بين الأدباء والشعراء وعلماء الدين واللغة والتاريخ ، ومجلسٍ فوق صَهوات الخيل وبين خِيرة المدربين على الفروسية وأساليب الضرب والطعان . وكان من أبرز الشعراء المنقطعين لتعليمه أبو الحسن المعروف بالناشئ الأصغر ، فقد أملى عليه شعره ، وقرأ معه كثيراً من دواوين القدماء والمحدثين ، وأخذ يوجهه إلى طرائق النقد ، ويبصره بمواطن السحر والجمال فى جيّد المنثور والمنظوم . وكان أبو فراس يؤثر شعرَ عنترة فى الجاهليين ، وشعر الفرزدق والكُميْت فى الأمويين ، ويروِّح عن نفسه بشعر كبار الشعراء العباسيين كبشار وأبى نُواس والحسين بن الضحاك .

والحق أن نفسه كانت مختلفة النزعة ، فبينما هى جِدٌّ وصرامة وتوثّب إلى معالى الأمور ، إذا هى حنّانة إلى اللهو العفيف ، توّاقة إلى التمتع بنعيم الحياة واجتلاء أسرار الجمال . والجمالُ مظهر من مظاهر

---

(١) القتام : غبار الحرب .

هذا الكون تدركه النفس الشفافة وتهفو إليه ، وترى فيه مُتعة وغِذاء ، والنفوسُ تصدأ كما يصدأ الحديد ولا يجلوها إلا فترات من السرور الذى لا يخدِش الفضيلة ولا يمس الكرامة .

كان الناشئُ الأصغر يقرأ معه يوماً بائية الكميت فى مدح بنى هاشم ، فلما قضيا فى درسها طويلا التفت إليه وقال : أقلتَ شيئاً من الشعر جديداً؟

— لقد جال بالأمس فى نفسى شعر أحسست به كأنه همسة الوحى فأسرعت إلى القلم لكتابته . فنشط الناشئُ وقال : هاتِ أبا فراس . فأنشد :

تطالبنى البيضُ الصوارم والقنا ... بما وعدت جدىّ فىّ المخايلُ (1)
فثلى من نال المعالى بسيفه ... وربّتما غالتة عنها الغوائل
وما كل طلّاب من الناس بالغٌ ... ولا كل سيّار إلى المجد واصل

فصاح الشيخ وقال : إيه يابن حمدان ! هذا هو الشعر الذى عجزت عنه شياطين الشعراء ! زدنى بالله يا بن سعيد زدنى فقال :

خيلى وإن قلّتْ كثيرٌ نفعُها ... بين الصوارم والقنا الرعّافِ (2)
ومكارمى عددُ النجوم ومنزلى ... مأوى الكرام ومنزلُ الأضياف
لا أقتنى لصروف دهرى عُدّة ... حتى كأن خطوبها أحلافى

---

(١) يراد بالمخايل : أمارات النجابة .

(٢) الرعاف : الذى يقطر منه الدم .

شيمٌ عُرفتُ بهـا غلاماً يافعـاً ولقـد عـرَفتُ بمثلها أسـلافى

فطرب الناشئ وقال :

حقًّا إن منبج لم تنجب بعد أبي عبادة البُحتُرى مثلك . اصدَح يا بُنىّ كما تشاء وغرّد ، وعلّم طيور الشام تلك الألحان القوية المملوءة بذكريات المجد والبطولة ، فإن الناس حيث شعراؤهم . فلقد سئمنا تلك الأشعار الرخوة الحائرة ، التى قتلت فى نفوس العرب النخوة والشهامة ، وصدفتهم عن التطلع إلى المجد والغـلَب ، فعاشوا فى بُلـْهنية[1] النعيم ، واستناموا إلى الراحة بين ظل الأشجار ، وخرير الأنهار ، وبين قَينة[2] وكأس ، وعبث ومجون . وهذا العبث إلى ما مُنِىَ به العرب مع الاعتماد على الغرباء ، وإلقاء شئون الدولة إليهم ، هو الذى قضى على الدولة العباسية ، وأتى على بنيانها من القواعد ، بعد أن ملكت أطراف الأرض ، وتحدّت الدنيا بالعلم وقوّة السلطان أيامَ الرشيد والمأمون . لقد رمحتنا[3] الدنيا بعد أن كنا نقتعد منها صهوة العزّ والصولة . هذا خليفتنا العباسىّ الذى بايعه الديلم بعد أن خلعوا أخاه وسَمَلوا[4] عينيه ، يجلس اليوم على عرشه كما يجلس القرد الخائف المذعور تذهب عيناه

(١) بلهنية العيش : رخاؤه ورغده .
(٢) القينة : الأمة ، أو الأمة المغنية .
(٣) رمحه : ضربه بالرمح ، ورمحته الدابة : رفسته .
(٤) سمل عينه : فقأها وأتلفها .

يميناً وشمالا حيث اتجهت عصا صاحبه ، وقد علمت أن هذا البائس المنكود أمر أن تنقش على النقود أسماء ثلاثة من أمراء الديلم بعد أن أصبح بينهم لعبة تشدُّها ثلاثة خيوط !

وإذا اتجهنا إلى ناحية الروم ، رأينا أنهم لم ينسوا ثأرهم عند العرب الذين ثلوا عروشهم ، وبدّدوا ملكهم ، فأخذوا فى مدَى هذه القرون يُعدُّون العدة ، وينفثون فى رجالهم روح الحقد على المسلمين ، ويلوِّحون لهم بأمل برّاق ، ويمنونهم الأمانىّ ، ويصوِّرون لهم ذلك اليوم الموعود الذى تعود فيه مملكة الروم التى اغتصبها المسلمون إلى حوزتهم . وها هم أولاء اليوم رابضون بالقرب من طَرَسوس يتحينون الفرصة للوثوب ، ويغتبطون بما أصاب دولة الإسلام من تمزّق ، وبما شجر بين أمرائها من حقد وعداء وانقسام .

وهنا قال أبو فراس فى صوت تكاد تخنقُه العبرة : إن الأمم تموت حينما تنسى أخلاقها ، وتغفُلُ عن تاريخها . ولن تعود دولة العرب إلا إذا عاد أهلها إلى أخلاق العرب !

بهذا وأمثاله كان يُنشَّأ أبو فراس فى دراسة الأدب والتاريخ . وقد دفعته هذه الدروس إلى الاستزادة والتوسع والانصباب على العلم حيثما وجده فكان يخلو بنفسه ساعات فى خزانة الكتب بالقصر ينتقل بين كتبها كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة لتجنى العسل طيّباً شهيًّا .

أما تدريبه على الفروسية وأساليب القتال ، فكان يقوم به واصلُ ابن عبد الله أعظم المدرِّبين مهارة ، وأبرعهم ضربا بسيف أو طعنا برمح أو إصابة بسهم ، ولم يكن يجد فى تدريب الفتى الناشئ عنَتاً أو مشقة ، وكأنما كان يعلِّم السمك أن يسبح فى الماء ، والطير أن يحلق فى السماء ، فإن أثر الوراثة فى أبى فراس كان عميقاً بعيد الغور ، فلم يمض شهر حتى حذَق فنون الحرب ، وركوب الخيل ، وأخذ يفاخر أنداده ويصاولهم ، ولم يُعقَد رِهان إلا كان فيه المجلِّى السَّباق . وكم أغراه التمكن من فنون الفروسية بكثير من التهور والمجازفة ، فكان يركض فرسه ويُلهبه بالسوط ليثب به فوق مسيل ماء يبلغ عرضه عَشْرَ أذرع ، دون أن يبتلّ حافر فرسه ، وكان يقيم سدًّا مرتفعاً من جذوع الأشجار ، ثم يهمز جواده فيثب فوقه كأنما يطير فى الهواء . وقد أفزعت هذه الأفانين واصلا ، وخاف عليه مغبَّتها ، فأفضى إلى أمه بمخاوفه ، ولكن أمه لم تلبث حين سمعت حديثه أن هزّت كتفيها فى قلة اكتراث ، ونظرت فى وجه واصل بعد أن أطبقت عينها اليسرى فى غرور وكبرياء ، وقالت : ما عليك من هذا يا بن عبد الله . إنّ بنى حمدان يجب أن يعملوا ما لا يستطيع عمله الناس . وإلا فلمن أعدّت خطيراتُ الأمور ؟

٣

شغلت الشام وبخاصة مدينةُ حلب فى هذه الأيام بالحديث عن نجلاء الخالدية ، وسرَتْ شهرتها بالجمال البارع من فم إلى فم ، وتناقل الناس فى إعجاب وإكبار ما ازدانت به من خُلُق ودين ولطف وأدب وخفة رُوح وعلو نسب . وكانت نجلاء حقًّا كما يصفون وفوق الذى يصفون ، فقد وهب الله لها وجهاً واضح الجبين ، رائع القَسَمات[1] ، به عينان يتألَّق فيهما الطهر ويُشعّ منهما النبل وكرم المحتد ، ومنحها نفساً أصفى من قطرات الغمام ، وأقرب إلى نفوس الملائكة الأطهار . نشأت فى بيت علم وأدب ينتمى إلى أسرة رفيعة المجد باذخة الشرف ، وقد باغ فى هذا الحين أخواها محمد وسعيد الخالديان منزلة أثيرة عند سيف الدولة بن حمدان أمير حلب ، وكانا يُشرفان على خزائن الكتب فى قصره . فنمت نجلاء فى هذا البيت الكريم ، وتعهدها أخواها بالتعليم والتهذيب حتى برعت فى فنون الأدب ، وقالت الشعر الجيد الرصين . وكانت دارها مثابة الأدباء والشعراء والعلماء يغشونها لينعموا بطرائف الأحاديث والأخبار ، وروائع الشعر والأدب ، ولينالوا من كرم نجلاء وحسن

(١) قسمات الوجه : محاسنه .

ضيافتها ما يَعزّ على موائد الملوك .

وكثيراً ما أشاد بمديحها الشعراء ، وكثيراً ما غنى المغنون بحسنها فرددت آفاق حلب هذا الغناء عذباً مشجياً . وكثيراً ما كانت نجلاء تسمع هذا الغناء فتبتسم وتهز كتفيها فى أنفة وشىء غير قليل من الخجل .

شغِل الناس بنجلاء ، وتسابق فتيان الأسر الكريمة إليها يستجدون نظرة رضا ، ويتمنى كل شاب منهم لو أسعده الحظ بأن يكون لها بعلا ، باذلاً فى سبيل ذلك كل ما فى يديه من مجد وشهرة ومال ، ولكن هذه الزهرة الناضرة النقية لم تقابل هذه النَّحْل المزدحمة حول رحيقها[1] المختوم إلا بابتسامة الزهر لأشعة الصباح . فقد علّمها أدبها ونبل أخلاقها أن تعطف على الناس جميعاً فى وداعة وصيانة ، وأن تسطع عليهم جميعاً كما تسطع الشمس ، لا يختص بشعاعها قصر أمير ، ولا يحرم ضياءها كوخ بائس فقير . فما يكاد يظن شاب أنه فاز منها بلمحة رضا حتى يدهمَه اليقين بأن ما كان يظنه قبولا لخِطبته لم يكن إلا لطفاً فى الرد وأدباً فى الإباء .

وكان أشدّ الفتيان حرصاً على خطبتها ، وتشبثاً بالرغبة فى تزوّجها قَرْعَوَيْه غلام سيف الدولة وقائد إحدى كتائبه .

كان شابّاً جميل الطلعة ، مديد الطول ، تيّاهاً شديد الغرور بنفسه والزهو بها ، يجمع إلى ذكائه طبيعة النَّمِر فى الفتك ، وغريزة الثعلب

---

(١) الرحيق : الخمر .

فى الدهاء والحيلة . عرض هذا القائد على نجلاء كل شىء ليكون لها زوجاً فلم يظفر بشىء ، وكثيراً ما منّاها الأمانىَّ ، وهمس فى أذنها بما ينتظرها من جاه وثروة وبعد مكانة ، ولكن فتاتنا كانت تقابل كل هذا بابتسامة مهذّبة لطيفة تمتزج فيها الدهشة بالحياء ، وتقول : ما أجمل هذا ! حقّاً إنه بديع ، ثم تنطلق إلى حديث آخر فى لباقة وأدب ، حتى إذا طال الكلام انفلتت منه كما ينفلت الطائر قبل أن تعلق به حبالة الصائد .

وهكذا مضت الأيام وقرعويه يزيد إلحاحاً ، وهى تزيد عنه بعداً وانصرافاً .

وكانت فاطمة أخت نجلاء تسكن بمنبج . حيث يقيم زوجها الحسين الجوهرى أكبر تجار الجواهر بالمدينة . فقَدِمتْ نجلاء من حلب لزيارة أختها مع خادمتها سلمى العراقية ، وهى امرأة فى الستين من عمرها لئيمة الطبع ، لها دهاء وفضلة من ذكاء ، صرفتهما فى الحيل والخبث واقتناص المنافع . ولم تقصِد نجلاء من هذه الزيارة إلا أن تروِّح عن نفسها قليلا من صخب حلب وازدحامها ، وقد راقها ما رأت فى منبج من حسن منظر ، وطيب هواء ، فأطالت مدة إقامتها .

وفى ذلك الحين كانت شجاعة أبى فراس وصباحة وجهه ، وكرم خلاله قد سارت مسير المثل فى المدينة ، ووصلت أخبارها إلى كل بيت ،

وتطلّع كل عظيم إلى أن ينال شرف مصاهرته . أما الأمهات فقد رفعن رءوسهن ، ومددن عيونهن ، وأرهفن آذانهن لكل ما يصل إليهن من أخبار بطل منبج وفارسها الباسل . وأعدّت كل أم ابنتها لهذا الشرف ، وأخذت تمهد لها إليه السبيل . والأم حينما تلد بنتاً لا تفكر فى شيء إلا فى زواجها ، وحينما تهزّ مهدها — وهى تتفرس فى وجهها ، وتدّعى أن كل هفوة للجمال فيه إنما هى حسن من نوع غريب لا عهد للناس به — لا يخطر ببالها إلا إحصاء أبناء المدينة ممن هم فى طبقتها واحداً واحداً ، وتتخيّر أكرمهم محتداً ، وأعظمهم ثروة وأملحهم وجهاً ، حتى إذا استقر بها الاختيار أخذت فى العمل ، والاستنجاد بخير الوسائل ، فتوددت إلى أمه ، ودفعت زوجها من حيث لا يدرى إلى مجاملة أبيه ومصادقته ، فإذا مات الغلام انصرفت إلى غلام آخر يليه فى المرتبة ، وأعادت القصة بذاتها ، لا تخرِم[1] منها حرفاً .

هكذا كانت حال الآباء والأمهات بمدينة منبج حين شبّ أبو فراس عن الطوق ، وحين أصبح شابًّا جميلا فى نحو الثامنة عشرة ، تتيه به العروبة ، وتشتاق إليه ميادين القتال . فلم يكن عجباً بعد هذا أن تكثر زيارة الأمهات لقصر سخينة ، وأن يرسلن عليها سيلا جارفاً من الملق

---

(١) لا تخرم منها حرفاً : لا تبدل فيها ، ولا تنقص ، وهو مستعار من خرمه أى ثلمه وثقبه .

كاد يحترفها . فما فعلت شيئاً إلا كان حسناً جميلا ، ولا قالت قولاً إلا وهو حكمة سليمان ، وفصاحة سحبان . وكلما مرّ ذكر ابنها فى غضون الحديث عرَضاً نثرن عليه الثناء ، وغمرنه بصنوف المديح والإطراء . وسخينة تسمع وتفهم ، لأنها أم تعرف ما تتمناه الأمهات لبناتهن من الخير والسعادة .

زارها فى أحد الأيام بعض كرائم السيدات ، وكان بينهن نائلة زوج والى المدينة من قِبَل سيف الدولة ، ومعها ابنتها عزّة ، فلما استقر بهن المُقام أخذت نائلة تملأ البهو حديثاً فى جمال القصر ، وحسن تنسيقه ، ثم تُتبع ذلك بالإشادة . بمجد بنى حمدان ، ثم تنتقل إلى ما تتحلى به سخينة من صفات الشرف والكرامة وأصالة الرأى ، ثم تثب بعد كل هذا إلى أن الولد صورة من الأم ، وأن كل عرق ينتمى إلى أصله ، وأن سيرة أبى فراس أصبحت مثلا عالياً للفتيان . ثم تتابع الحديث وتقول : إن ابنى لا يملّ الكلام فى بطولة أبى فراس حتى لقد قلت له بالأمس : خير لك يا بنىّ أن تؤلف كتاباً فى أخبار صديقك . فصاح ضاحكاً وقال : وبم أسمى الكتاب يا أمى ؟ قلت : سمه : « روض الآس فى أخبار أبى فراس » . فابتسمت سخينة وقالت :

— خير له أن يسميه : « ظبية الكِناس[1] فى بطولة أبى فراس »

---

(١) الكناس : بيت الظبى .

فضحكت السيدات جميعهن ، وما كدن يخضن فى حديث آخر حتى دخلت هيلانة تعلن قدوم السيدة فاطمة الخالدية وأختها نجلاء ، فقمن لتحيتها ، وقالت فاطمة فى دُعابة :

— لقد هززتن أركان البهو قهقهة ففيم كان ضحككن ؟

فحاولت نائلة بعد أن بهرها جمال نجلاء أن تغضى عن السؤال ، وأن تصرف الحديث إلى غير وجهه . ولكن سخينة أسرعت فقالت :

— كنا نختار اسم كتاب يؤلَّف فى سيرة ابنى فماذا تقترحين ؟

— أقترح أن يسمى : « تعطير الأنفاس بسيرة أبى فراس » فظهر الغيظ على وجه نائلة وقالت :

— كيف حال ابنك الصغير يا فاطمة ؟ لقد سمعتُ أنه كان مريضاً.

— إنه الآن بخير . مسح الله عنّا وعنك السوء !

ثم تجاذبن أطراف القول فى فنون شتى ، وسخينة لا ترفع عينيها من وجه نجلاء ، فقد أعجبها جمالها وأدبها وحسن حديثها . حتى إذا مرّ وقت غيرُ قليل ، ودّع الزائرات سخينة وانصرفن .

وحينما انفردت نجلاء بأختها فى الطريق قالت :

— لقد سمعت كثيراً عن أبى فراس ، وسمعت كثيراً من شعره الذى يتناقله الناس ، وهو يُعدّ فى الطبقة الأولى قوّة وروعة وبعد خيال .

— إنه شاب لم تر له منبج مِثْلا فى أدبه وسجاحة خلقه وبطولته .

– لقد أكثر الناس من المبالغة فى وصف شجاعته حتى أحببت أن أراه .

– لا تُعْقَدُ فى منبج يا نجلاء مجالس للشعر والأدب كما هى الحال فى حلب ، ولكنك تستطيعين أن تَرَيْه كل أصيل ممتطياً جواده مع فريق من خُلانه فى بعض مروج المدينة .

– يكفى أن أراه فى شعره كما أرى كل شاعر ، فإن الشعر صورة صادقة لصاحبه ، ومرآة صافية لخوالج نفسه .

– ليس دائماً يا نجلاء ، فإن لأبى نواس شعراً فى الزهد ، وللحطيئة شعراً فى الحثّ على مكارم الأخلاق .

كان أبو فراس حقيقاً بكل هذه الضجة ، فقد زادته الرجولة وسَامة وقسامة ، فكان مشرق الوجه ، نافذ نظرات العيون ، متين الجسم ، قوى العضل ، تتأجج فيه نيران الشباب ، وتفور فى نفسه نزعات عاتية من الطموح إلى المجد والوثوب إلى مراتب العظمة . وكان صورة صادقة للبطولة فى القرن الرابع الهجرى ، شديدَ الثقة بنفسه ، قليل الاكتراث بالنوازل والخطوب ، يعيش عيشة الأمراء المترَفين فى ثروة وجاه ورفاغة[١] من العيش ، ويتسلى بقرض الشعر وركوب الخيل والمصارعة والصيد . والتف حوله كثير من أبناء القواد وكبار الأسر ، فكانوا يقضون أكثر

(١) رفاغة العيش : رغده وسعته وطيبه .

وقتهم فى ترف ولهو وتناشد للأشعار ، بين مروج منبج الخضر ، وأرباضها[١] الضاحكة ، وبساتينها الناضرة ، وكان يحلو لهم عند الأصيل أن يجلسوا إلى جسر أحد النهيرات التى يفيض ماؤها فى الشتاء ويجفّ عند الصيف ، والتى يقول فيها أبو فراس :

قف بالمنازل والملا ... ب ، لا أراها الله مَحْلا[٢] !
أوطنتُها زمنَ الصبا ... وجعلتُ منبج لى محلا
حيث التفتَّ رأيتَ ما ... ء سائحاً ، ورأيتَ ظلا
والماءُ يفصل بين زهـ ... ـر الروض فى الشَّطين فصلا
كبساط وَشى جرّدت ... أيدى القُيون عليه نصْلا[٣]

وفى ذات مساء اقترح أبو فراس على أصحابه أن يخرجوا للصيد «بعين باصر» وهى على مسافة فرسخين من حلب ، فخرجوا قبل تبلُّج الصباح ، ومعهم الصقور والبزاة وكلاب الصيد والخدم والعبيد ، وقضَوْا سبع ليال بين صيد وقصف ، وقام الطهاة بشى الظباء وطبخها بين ضحك الضاحكين ، وعبث العابثين ، وتناشد الأشعار ، وتبادل النوادر ، وأخذوا يتخطَّفون اللحم ، ويعدو بعضهم وراء بعض فى هزل يشبه الجد .

---

(١) أرباض المدينة : ما حولها من بيوت ومساكن ، المفرد ربض .

(٢) المحل : الجدب وانقطاع المطر .

(٣) القيون : جمع قين ، وهو صانع السيوف ونحوها . والنصل : حديدة الرمح ونحوه ، وربما سمى السيف نصلا .

وفى الحق إنهم كانوا صورة لمرح الشباب ورْيعانه ولهوه ونشوته ، وكانوا يمثلون الفراغ والجدة[١] وراحة البال والبراءة من كل ما يكدر الحياة . وبعد أن نالوا من الصيد واللهو ما يشتهون ، عادوا إلى المدينة ، فبلغوها وقد مال ميزان النهار . وكان أبو فراس يتقدم الجمع فوق جواد عربىّ كريم ، وبينما كان يمرّ ببعض الدروب إذ جمح به الفرس فُجاءة لسبب غاب عنه ، فحاول أن يكبح جماحه ، ولكنه كان قد لعق لجامه ، وخرج عن إرادة فارسه . وفى ذلك الحين كانت امرأة عجوز تمشى إلى جانب جدار فزحمها الفرس بكفله فسقطت على الأرض ، وتواثب الناس من كل مكان على الفرس ، وتعلق كثير منها برقبته ومَعْرفته حتى استطاعوا صدّه . واتجه أبو فراس نحو العجوز ، وتقدم خدمه وعبيده فحملوها فى مِحفّة[٢] بعد أن سألوها عن دارها ، فعلموا أنها تسكن فى دار الحسين الجوهرى . وسار خلفهم أبو فراس حتى وصل إلى دار فخمة البناء ، رحبة الفناء ، فحطّ العبيد المحفة ، وتقدم الحسين الجوهرى فحيا الأمير ، وسأله مذعوراً عن الخبر ، فأخبره بالحادثة . وقد تبين الأسف فى وجه أبى فراس ، وحتم أن يستدعى لها طبيباً . وأن يمنحها من المال ما يخفف آلامها ، فأبى الحسين فى أدب واستعطاف وقال : إنها ضيفتى يا مولاى ، وخادم نجلاء أخت زوجى ، ولا أحب أن يقول الناس : إن

---

(١) الجدة : الثروة والمال .

(٢) المحفة : مركب للنساء كالهودج ، وسرير يحمل عليه المسافر .

الجوهرى تخلّى عن واجبه . ولكن أبا فراس صمم فلم يكن من طاعته بدّ . فاستدعى الطبيب ، ودخل معه الحسين وأبو فراس إلى حجرة المريضة ، فجسّ أطرافها ، وأطال البحث ، وبعد لأى رفع رأسه فى صلف وقال : لا بأس . ثم التفت إلى أبى فراس وقال : ليس بها شىء إلا شدخاً فى عظم ساقها اليمنى ، وهو غير ذى خطر ، ولا يحتاج إلا إلى رباط متين يحول بين الساق والحركة ، ثم إلى الراحة الكاملة . فأحضرت الأربطة ، وربط الطبيب الساق إلى ما فوق الركبة ربطاً وثيقاً ، وأمر ألا تتناول من الطعام إلا ما كان خفيفاً سهل الهضم . ثم اتجه إلى سلمى وكان خشناً لا يحسن تصريف الكلام وقال :

ــ وأنت أيتها العجوز المتشبثة بالحياة ، والتى لها قدم فى كل مكان ، ماذا كنت تعملين فى وقت الظهيرة التى تذيب دماغ الضبّ ؟ لعلك كنت تبحثين عن زوج مثلى ؟ !

فأخفت سلمى غضبها ، وأرادت أن تثأر لنفسها فقالت فى صوت خافت :

ــ لولا أنى لا أحب الأطباء لتزوجت واحداً منهم .

ــ ولم لا تحبين الأطباء ؟ !

ــ لأنى أبغض طبهم ، وإلا فقل لى بحق أبيك متى حال الطب دون الموت ؟ ومتى أطال الطب أمد الحياة ؟ إن الحيوان يمرَض فيشفى

بغير طبيب ، وإن كثيراً من صنوفه تُعَمَّر فوق عمر الإنسان أضعافاً دون حاجة إلى طبيب . إن الله يا سيدى الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، خلق فى طبيعة الإنسان وطبيعة كلّ حىّ طبيباً من غرائزه ، فهو إذا أحس المرض انصرف إلى الراحة ، وابتعد عن الطعام ، وحمى نفسه من البرد . وقد توحى له الفطرة بتناول غذاء هو دواؤه وفيه شفاؤه . إن هرّتى هذه تعرف متى تمرَض ، وتعرف كيف تشفى ، ولو كنت دعوت لها بطبيب فى إحدى مَرَضاتها لكانت اليوم فى الدار الآخرة تصلى نار الجحيم لكثرة ما قتلت من الفيران ، وما اختطفت من طعام الجيران . إن الأمراض أيها الطبيب البارع قسمان : أمراض طارئة سهلة الزوال ، وأمراض معضلة قاتلة ، وهما لا يحتاجان إلى طبيب . لأن القسم الأول يزول بقليل من الحماية والعناية ، والثانى لا تنفع فيه رُقْية الراقى . والأنكى من كل هذا أن إنساناً لو مرض ودعا فى كل يوم طبيباً — وهبه دعا عشرة منهم — لاختلف تقدير كل واحد للداء ، واختلف وصفهم للدواء ، وإذا كان الحق لا يتعدد فأحدهم بالبديهة هوالصادق أو هم جميعاً كاذبون . ولن تسأل طبيباً عن شىء ويقول لك إنى لا أعرفه ، ولن تعرِض نفسك على طبيب حتى يهول لك فى الأمر ، ويُنذرَك بأكبر المصائب ، ويكدّرَ عليك صفوالحياة ، ويُخيلَ إليك أنك تسير إلى القبر عدْواً . وقد اعتاد بعض الأطباء حينما يموت المريض أن يلقوا التبعة كلها على أهله ، ولهم فى ذلك أساليب بارعة ، كأن

يسألوهم مثلا : هل سقيتموه ؟ فإن قالوا : نعم قالوا : يا للدّاهية ! لقد قضيتم عليه ، إن الماء هو الذى قتله ! وإن قالوا : لا ، قالوا : يا لَلجهل ويا لَلغباء ، إن أقل الناس معرفة يدرك أن الظمأ يقتل المريض لا محالة ! فأسرع أبو فراس وقال :

ـ أنت مخطئة يا خالتى ، إن للطب شأناً فى استئصال الأمراض أو تخفيف شدّتها ، أما أن المرء يعالج نفسه بفطرته فصحيح ، ولكن هذا العلاج قد يطول فتطول به آلام المريض . إن الطب لا يمنع الموت ، ولكنه قد ينقذ من الموت .

ـ لك رأيك يا بنىّ ، ولكنى إذا أنكرت الطب فلن أنكر فضل الجرّاحين ، فإن نتائج أعمالهم ظاهرة بينة . وهنا قال الطبيب :

ـ وما رأيك أيتها الفيلسوفة العجوز فى جابرى العظام ؟

ـ يجب على جابر العظام ألا يَشْدَخ النفوس ، ويكسر الخواطر .

فضحك الحسين الجوهرى وقال : إن سلمى أيها الطبيب لا تحب أن يدعوها إنسان بالعجوز .

وانصرف الطبيب ، وتبعه أبو فراس بعد أن وضع تحت وسادة سلمى كيساً به عشرون ديناراً ، وعند انصرافه لمح ستاراً ينفرج عن وجه لم تشرق الشمس على أجمل منه ، ولم تتفتح أزهار البساتين عن أنضر منه ، ولم

تفاخر لآلئ البحار بأكثر منه صفاء وتألقاً . وجه خلقه الله من أشعة الجنة : فيه الجمال ، وفيه النبل ، وفيه الشرف . رأى أبو فراس هذا الوجه فاضطرب قلبه ، ولم يحاول أن يطيل النظر هيبة وإجلالا ، فقد ذهل عن نفسه ، وأحس على الرغم من ذهوله أن هذا الوجه كان يُرسل ابتسامة مشرقة طاهرة كزهرة الربيع ، بعثت فى نفسه الأمل ، كأنها اللوح السابح يراه الغريق من بعيد ، وقد اصطلحت عليه الأمواج ، وجاءه الموج من كل مكان ، فيُهْرَع إليه ، ويتشبث به ، ويرى فيه بارقاً من النجاة .

خرج أبو فراس من الدار ، وأخذ سَمْته إلى قصره كالمأخوذ ، وقد سمع نفسه وهو يردّد :

تبسّمَ إذ تبسّم عن أقاحى وأسفر حين أسفر عن صباح



٤

قضى أبو فراس ليلته مضطرباً أرِقاً ، وكان دقيق الحسّ ، بعيد مرمى الخيال ، فأخذ يصوّر له الوهم صوراً لهذا الوجه الباسم الوضّاح ، ويذهب به فى طرق كثيرة الشُّعَب ، بعيدة المسالك : فمرة يرى نفسه وهو أمام هذه الفتاة يمدّ يده لخطبتها وهى عنه معرضة عزوف [١] ، لا تجيب بكلمة ، حتى إذا برمت به تمشّت نافرة فى خفر وحياء ، كأن أمراً منه لا يَعنيها ، وكأن حديثه الطويل لم يوجّه إليها . ومرة يلقاها لا تزال باسمة ، فما يكاد ينبس بكلمة حتى تبادله الحديث فى وداعة ورفق وأدب . ثم يعود إليه عقله فيجلس جلسة المفكر الرزين ، ويسائل نفسه هامساً : من هى ؟ ومن تكون ؟ إن كانت زوج الحسين الجوهرى ، فلا برحت دونى عليها ستور ! ومتى استساغ كرم محتدى أن ينال بالنظر زوجاً كيفما بلغ بها الجمال ؟ إن كانت إياها فيا لَكَمَدى ، ويا لَحسرتى !

حقًّا لقد قضيت ، وماتت آمالى ، وذهب شبابى الذى كنت أعدّه لعظائم الأمور بَدَداً . وَيحٌ لك يا أبا فراس ! وقاتل الله تلك الساعة

---

(١) عزوف : صفة من عزفت نفسه عن الشىء ، إذا زهدت فيه . وانصرفت عنه ، وملته .

المشئومة ! وقاتل الله تلك العجوز الورهاء[1] التى جرّتك إلى حتفك ، وقضت بالفناء على صباك ، وأمانىّ صباك ! ألم أعزم منذ شهرعلى الذّهاب إلى حلب والإقامة فى كنف سيف الدولة ابن عمى وزوج أختى ، لأحمل عنه نصيباً من أعبائه ، ولأجرِّد سيفى لنصرته فى غزواته لعصاة العرب والروم ؟ إننى لو فعلت لعشت حياتى خالياً هانئاً سعيداً . ولكن أهى حقًّا زوج الحسين الجوهرى ؟ لقد سمعته يقول إن سلمى خادم أخت زوجه ، فلعل ذلك الوجه يكون وجه تلك الأخت ، فإن الله أرحم بى من أن يصرعنى هذا المصرع ، ويقضى على أملى هذا القضاء ، وهو يعلم أن تلك النظرة العابرة الغافلة لم ترسلها عينى ولها رغبة فى الإثم ، أو قصد إلى المنكر ، وإنما هى رمية لم أشدّ لها وتراً ، ولم أصوّب فيها إلى هدف .

سبحانك اللهم يا رب ! آمنت بقضائك ! وآمنت بقدرك ! ولكن لنا نفوساً ضعيفة لا تحتمل هذا القضاء ، ولا تستطيع الفرار من ذلك القدر . ثم رفع رأسه كما يرتفع رأس الغريق وقد غمره الماء ، وهو يقول : ولكنها ليست زوج الحسين ، وإنما هى أختها . إنها ابتسمت لى ابتسامة كلها نقاء وطهر . ثم وثب من الفرح صائحاً : حقًّا إنها ليست زوج الحسين ، وحقًّا إنها أختها ، فما أعظم سرورى ! وما أعظم هنائى وسعادتى !

---

(١) ورهاء : حمقاء ، ناقصة العقل .

الآن أستطيع أن أرغب ، وأستطيع أن أرجو ، وأستطيع أن أكون رجلا له فى الحياة آمال . ولكن ما اسمها ؟ لقد سمعت الحسين يذكره ، إنه اسم حلو كصاحبته . لعله : هيفاء ؟ لا . غيداء ؟ إنه ينتهى بألف ممدودة . ها . لقد وجدته : نجلاء . نجلاء . إن اسمها نجلاء . ما أجمل الاسم ! وما أجمل المسمَّى ! حقًّا إنها نجلاء .

هكذا كان يقضى أبو فراس ليله فى خيال وتفكير ، فلما طرقه النعاس دنِفاً[1] مكدوداً فى الهزيع الأخير من الليل ، لم ترحمه الأحلام . فقد رأى فيما يرى النائم أنه فى غابة شجراء[2] كثيرة الشوك والقتاد ، أدمى المشى فيها قدميه وأجهده ، ورأى عن بعد شجرة سامقة ، حاول الوصول إليها ، فلما قرب منها رأى بها كثيراً من الأزهار ، فمالت نفسه إلى اقتطاف أجمل زهراتها ، فتسلق الشجرة وكانت صعبة المرتَقَى ، ونظر فى الأزهار فإذا هى وجوه رائعة الحسن ، يجرى فيها ماء النضارة والشباب ، ولكنه لم يجد فيها وجهاً يشبه وجه نجلاء ، فاستمر فى الصعود والتسلق ، فإذا وجه يشرق عليه من عَذَبة[3] غصن بعيد المنال ، فتأمل وحدّق فإذا هو وجه نجلاء فطارت نفسه إليه شوقاً ، ووثب إلى الغصن ! ولكن الغصن

---

(١) الدنف : المريض .

(٢) شجراء : ملتفة الشجر .

(٣) عذبة الغصن : طرفه .

هوى بجسمه ، وجعل يذهب ويجيء به فى الهواء ، وهو قابض عليه لا يُفلته ، والزهرة تنظر إليه وتبتسم ، حتى إذا استنجد بقوته ، مدّ إلى الزهرة يداً فاقتطفها ، وهى تقهقه بصوت عال أيقظه من رقاده ، فنظر ، فإذا سيف الفجر يلمع فى الأفق ، وإذا الديكة تصيح مستبشرة ببزوغ الصباح ، فنهض من فراشه ، وقد أعادت الرؤيا إلى نفسه شيئاً من الأمل ، ورأى أن حسن الطالع قد هيأ له من حادثة العجوز وسيلة لزيارتها والاطمئنان على حالها ، وأن هذه الزيارات قد تمهّد له السبيل إلى رؤية نجلاء ، والتعرف إلى أهلها ثم خِطبتها منهم . وذهب أبو فراس إلى دار الحسين الجوهرى فقابله أحد الخدم لدى الباب ، وأخبره أن سلمى بالطبقة الأولى من الدار ، ثم سار أمامه ليصل به إليها .

فلما دخل الحجرة حيّاها وجلس إلى جانب سريرها ، وأخذ يسأل عن حالها ، ويسرّى عنها ، ويتألم لما أصابها ، وكانت قد استردت صحتها فأخذت تهوّن عليه الأمر وتحدثه بكثير من أخبار حلب ، وبينما هما يتجاذبان القول إذا نجلاء تدخل فجأة ، ولم يكن يخطر ببالها أن إنساناً غريباً يزور سلمى فى هذا الصباح الباكر . دخلت وهى تصيح : كيف حالك اليوم يا سلمى ؟ فلما لمحت أبا فراس ذَهِلت ، ووقفت مكانها لا تَرِيم ، كأن المفاجأة عقدت رجليها إلى الأرض ، حتى إذا أفاقت من هجمة الدهشة دارت نحو الباب فى ذعر تتلمس

الفرار ، ولكن سلمى صاحت بها :

ـ على رسلك يا سيدتى ، إنه الأمير أبو فراس ابن عم أميرنا سيف الدولة ، وهو شاعر عبقرى الخيال ، وطالما حدثك عنه الناشئ الأصغر أستاذه ومعلمه ، وطالما ألححت عليه أن يكتب لك أشعاره ، وأنت يا سيدتى أديبة شاعرة تجالسين كبار الشعراء والأدباء ، وقد كانت فضليات النساء فى الصدر الأول لا يَرَيْنَ من حرج فى حضور مجالس العلم والأدب ، وكان منهن المحدِّثات والفقيهات والأديبات والشاعرات .

فالتفتت نجلاء فى تردد وقالت فى صوت خافت يتعثر بالحياء :

ـ الأمير أبو فراس الشاعر ؟ وكان أبو فراس واقفاً فتقدم نحوها فى تردّد وخشية وقال :

ـ نعم يا سيدتى أنا أبو فراس الشاعر ، وقد آن لى الآن أن أزهى بشعرى وأعتزّ به ، لأنه نال استحسان خير الأديبات الشاعرات .

فخطت نحوه نجلاء فى خجل وأدب وقالت :

ـ سألتك بالله يا سيدى أن تجلس فإنى كنت فى شوق إلى سماع شعرك وقد يطول بنا الحديث . أترى بأساً من أن أكون راويتك ؟

ـ إن شعرى يشرُف يا سيدتى بأن تكونى له راوية . فقالت :

ـ لقد كنت راويتك قبل أن نلتقى . ثم تمكنت فى جِلستها وقالت

فى وقار : حدثنا أبو الحُصَين الرَّقِّىّ ، عن جعفر بن ورقاء ، عن أبى فراس بن سعيد أنه قال :

إنّا إذا اشتدّ الزما ... نُ ، وجار خطب وادلهمّ
ألفيتَ حولَ بيوتنا ... عُدد الشجاعة والكرم
للقا العدا بيضُ السيو ... ف ، وللندى حُمر النَّعَم[١]
هذا وهذا دأبُنا ... يودَى دمٌ ، ويراق دم[٢]

وقال :

لقد علمتْ سَراةُ الحىّ أنا ... لنا الجبلُ الممنع جانباه
يفِىء الراغبون إلى ذَراه ... ويأوِى الخائفون إلى حماه

وحدِّثتُ عنه أنه يقول :

إذا خُلقَ الأنام لحثِّ كأسٍ ... ومزمار وطُنبور وعود
فلم يُخلق بنو حمدان إلا ... لمجد أو لبأس أو لجود

ويقول :

علونا جَوْشنا بأشدَّ منه ... وأثبتَ عند مشتَجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى ... ظننتُ البرَّ بحراً من سلاح

---

(١) حمر النعم : أجود الإبل وأثمنها .

(٢) الدأب : الشأن والعادة . يودى دم : يسيل فى الحروب . يراق دم : ينهمر عند ذبح الإبل للضيفان .

وألسنة من العذَبات حمرٍ تخاطبنا بأفواه الرياح (١)
وأروعَ جيشه ليلٌ بهيم وغُرَّتُه عمودٌ للصباح
صفوح عند قدرته كريم قليل الصفح ما بين الصفاح (٢)
وكان ثباتُه للقلب قلباً وهيبتُه جناحاً للجناح

ثم ابتسمت وقالت :

ـ أهذه الرواية صحيحة ؟ فقال أبو فراس :

ـ الرواية صحيحة ، غير أن حسن إلقائك يا سيدتى زاد فى شعرى كثيراً لم يكن فيه . هل ترويين أبياتاً أخرى ؟

فأعادت جلسة الوقار وقالت : حدثنا أبو زهير بن حمدان ، عن الناشئ الأصغر ، عن أبى فراس أنه قال :

يا ليلة لستُ أنسى طيبها أبداً كأنّ كلّ سرور حاضرٌ فيها
باتت وبتُّ وبات الزِّقّ ثالثنا حتى الصباح تسقّينى وأسقيها
كأن سودَ عناقيد بلمّتها أهدت سلافتَها خمراً إلى فيها

ثم قالت وهى تبتسم :

ـ أحقيقة كانت هذه الليلة أم خيالا ؟

ـ كانت خيال شاعر يا سيدتى ، والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر

---

(١) العذبات : المراد الرايات .

(٢) صفحة الشىء : جانبه ، وجمعها صفاح ، ويراد بالصفاح السيوف .

أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟

– هذه حيلة يا سيدى يلجأ إليها كل شاعر .

– إننى يا سيدتى لم أجد فى ماضى أيامى من تصلح لأن تكون شريكة حياتى ، وما زلتُ عصفوراً حائراً يسبح فى الجوّ باحثاً عن إلف .

وفى هذه اللحظة صاحت سلمى الماكرة صيحة ارتجت لها أرجاء الحجرة ، وأخذت تشكو آلام ساقها فى تصنّع متقن ، وأنات تتقطّع لها نياط القلوب . ففزِعت نجلاء ، وأخذ أبو فراس يُهدّئ من نفس العجوز فى حنان ورفق ، ويدعوها إلى الصبر والجلد ، وهى تتململ وتكتم أنفاسها بوسادتها ، ولم تسكُن إلا بعد أن كادت تنفد الحيل فى إعادتها إلى الهدوء . وعند ذلك همّ أبو فراس بالانصراف بعد أن ودّع نجلاء وحيّا العجوز .

وتوالت زيارات أبى فراس ، وتوالت المقابلات ، وزال شىء من الكُلْفة بين الصديقين . وبينما كان فى ذات يوم يزور سلمى إذ قابلته نجلاء مستبشرة وهى تقول :

– لقد أوشكت سلمى أن تُشفى . فأطرق فى خجل وقال :

– ليتنى أشفى كما شُفيت ! فذُعرت نجلاء وقالت فى صوت رقيق :

– أأنت مريض حقًّا يا سيدى ؟

– نعم مريض يا فتاتى ، ولكنّ مرضى لا يعرفه الأطباء ، إنه المرض

الذى أصيب به قبلى قيس بن الملوَّح وجميل بن مَعْمَرْ .

فابتسمت نجلاء وقالت :

ـ أظنك تمزح يا سيدى .

ـ لست أمزح يا نجلاء ، إنه الحب الطاهر الشريف .

ـ أرجو أن توفق إلى لقاء من تحب .

ـ إنه أمامى وفى يدى لو كتبت لى السعادة وباركتنى ملائكة السماء .

فاحمرّ وجه نجلاء من الخجل ، وأطرقت فى صمت وحيرة ، وأسرع أبو فراس يقول :

ـ سيدتى ! إن رجائى أن تومئ إيماءة تدل على القبول ، كل ما أطلبه يا سيدتى أن أنال الرضا بأن أكون لك بعلا . فابتسمت نجلاء ابتسامة واهنة فهم منها أبو فراس رضاها فصاح :

ـ أنت يا سيدتى حياتى ، وريحانة روحى ، ومطمح آمالى ، إننى سأكون أسعد زوج طلعت عليه الشمس .

وبعد أن تنقلا فى ضروب شتى من الأحاديث ، ودّعها وانصرف ، وهو يظن أنه ملك الخافقين ، وسما فوق مناط الفرقدين .

وذهبت نجلاء إلى أختها فحدثتها بخطبة أبى فراس ، وأخذت تطريه وتُشيد بصفاته ورفيع أدبه ، وكلما بلغت الغاية فى المديح عادت أدراجها لتبتدئ من جديد ، وفاطمة منصتة جذلة لسرور أختها . وبعد أن استمعت طويلا رفعت رأسها وقالت :

– وهل تقدم لخِطبتك أحد فى حلب يا نجلاء .

– كثير يا أختى ، ولكنى استطعت أن أدفعهم عنى جميعاً ، إلا فتى يسمونه قرعويه ، وهو فارسى المنبت ، له بحلب أعظم نفوذ وأكبر صولة ، لأنه غلام سيف الدولة الأثير عنده ، وهو من كبار قواده ، ولا يعوزه شيء مما يزدان به الرجال من بسطة فى الجسم ووسامة فى الوجه وشجاعة فى الميدان ، ولكنه يطوى بين جوانحه نفساً تتوق إلى الشرّ ، ويُخفى وراء بسماته كل معانى الختل والخديعة . هذا الفتى لا يمَلّ من الإلحاح فى خطبتى ولا يسأم من طول المطل والتسويف ، فهو غريم مثابر مصمم ، يظن أن الحب ميدان قتال يجب أن يكسب فيه المعركة ، وألا يتحدث الناس بفراره منه كيفما بلغ به اليأس . وقد كنت أستطيع أن أغلق بابى دونه ، أو أزيد فى التنكر له ، لولا شدةُ اتصاله بسيف الدولة وخوفى من مكره ومحاله[1] . والحق أن أكبر ما دفعنى إلى زيارة منبج إنما هو لأراك ولأن أفرّ منه .

وقطع الحديث عليهما دخول حسين الجوهرى ، الذى لم يلبث بعد الغداء وبعد أن استمع إلى زوجته طويلا ، أن خرج مسرعاً لدعوة أبى فراس إلى الطعام فى الغد ، تقديراً لتفضله بزيارة داره .

وهكذا صح تدبير فاطمة ، وهكذا توالت الأيام ، وتوالت معها

(١) المحال : المقدرة والدهاء ، من الحول والحيلة .

زيارات أبى فراس لنجلاء ، وهما فى كل زيارة يتحدثان عما ينتظرهما من هناءة فى ظل زواج سعيد .

وفى ذات يوم دعا حسين الجوهرى أبا فراس للصيد فى ضيعة له بأحد أرباض المدينة ، وكانت سبقتهما إليها نجلاء وفاطمة وطائفة من العبيد والخدم فقضى أبو فراس أياماً هنيئة فى اللهو والصيد والتمتع بنشوة الحب إلى جانب نجلاء دون رقيب أو حسيب . وبينما هما فى صبيحة يوم يركضان جواديهما خلف غزال . إذ لمحت نجلاء شبح فارس عن بعد يظهر ثم يختفى خلف الآكام فى هيئة المريب المتجسس ، فتركت مطاردة الغزال ، وأرخت العنان لفرسها فانطلق كأنه لمحة البرق ، ودارت بجوادها حتى لا يظن الفارس أنها تقصده ، حتى إذا صارت على كثب منه ، وأبصرت صفحة وجهه ، انقبض صدرها ، ولمع الغيظ فى عينيها ، وتمتمت بكلمات كلها سخط على النذالة والأنذال . ثم عادت أدراجها فلحقت بأبى فراس والغضب لا يزال يضطرم فى وجهها . فدَهِشَ وأخذ يسأل عن سبب انصرافها عنه وعما يبدو فى وجهها من غيظ وألم ، فسكتت برهة ، ثم رفعت وجهها إليه قائلة :

— إن الله خلق فريقاً من الناس يوم خلق الأفاعى . وإن بعض الناس لا يُستطاع الفرار من كيدهم وخبثهم ولو سكنا فوق متن الهواء ، وعشنا فى قرارة الماء . وهم كالموت يدركوننا أينما كنا ولوكنا فى بروج مشيدة.

ـــ ما هذا التهويل يا سيدتى ؟

ـــ قد يكون تهويلا ، ولكنى لا أحب الدناءة ، ولا أتحمل الأدنياء .

ـــ لقد أفزعتنى يا نجلاء ، فبالله عليك إلا ما صرّحت !

ـــ رأيت فارساً عن بعد يظهر ويختفى ، فعدوت بجوادى من ورائه حتى أقرب منه بحيث لا يرانى ، فلما دنوت منه عرفت أنه فهدٌ غلام قرعويه ...

ـــ قرعويه غلام سيف الدولة وقائد جيوشه ؟ وما شأن هذا فى أن تنالك هذه الثورة من الغضب التى كادت تكدر صفاء هذا الوجه اللؤلؤى ؟

ـــ لن أكتمك شيئاً يا سيدى . إن قرعويه هذا يطاردنى فى حلب ، ويلح فى خِطبتى ، وكأنه لم يرد أن يتركنى أياماً أتمتع فيها بلذة نسيانه ، فأرسل غلامه ليتجسس علىّ ، ويكدر صفو حياتى بذكره .

ـــ وهل قرعويه هذا من النفوذ والصولة بحيث ترهبينه وتلجئين إلى مصانعته ؟

ـــ له من المكانة عند سيف الدولة فوق ما يتخيل المتخيلون . ثم هو ماكر ختّال ، يلبَس لمصارعة الأسود إهاب الثعلب .

ـــ هوّنى عليك يا سيدتى ، فإن فى سيف حبيبك مصرع الأسود والثعالب ، ثم أخذ يفاكهها ويهوّن عليها الأمر حتى ضحكت ، وحملت الريح رنين ضحكها عذباً حلو النغم فامتزج بتغريد الطيور .

ولما قرب أبو فراس من الخيام لمح أسامة خادمه وهو ينزل عن فرسه ، فأسرع إليه وسأله عن سبب قدومه ، فأخبره بأن رسالة عاجلة جاءت

من سيف الدولة لدعوته إلى حلب دون أن يعوّق . وهنا التفت أبو فراس إلى نجلاء حزيناً كاسفاً ، والدمع يكاد يثب من عينيه وقال :

– هكذا الدنيا لا يتم بها سرور : فأجابته مسرعة :

– لا . لا . إن الدنيا كلها سرور ، سر إلى ابن عمك غداً ، وستراني قريباً فى حلب . إن الفرقدين لا يفترقان .



٥

عند ما تبلّج صباح اليوم الخامس من شهر رجب سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، كان أبو فراس قد أعدّ عدّته للسفر ، فشُدّت الحمول على الإبل ، وكان يحمل متاعه أربعون بعيراً ، سار خلفها الرجال بين فارس وراجل ، وقبل أن يمتطى جواده وقف ليودّع أمه فأخذت تقبّله فى جبينه مرّات ، وتشدّ ذراعيه القويتين إليها كالمباهية المفاخرة ، وتقول : سر أبا فراس وأتمم صحيفة المجد التى وقف الموت بأبيك دون إتمامها ، سر يا بنىّ فإنما وُلدْتَ لصَهوات[1] الجياد ، ومصارعة الأهوال . سر ودعنى هنا أهنأ بأخبار انتصارك وفوزك . وبعد أن نثرت عليه دعواتها سار أبو فراس ووراءه العبيد والخدم ، وقد تجنب الطريق إلى حلب ليمرّ بمنزل له فى قلبه أكبر منزلة ، حتى إذا حاذى دار نجلاء نظر فإذا نافذة تُفتح ، وإذا وجه مشرق وضّاح يحييه بابتسامة كابتسامة الربيع ، كانت زاده فى سفره الطويل .

وكانت الطريق إلى حلب ملتوية بين ارتفاع وانحدار ، تزينها المروج الخضر وأشجار الزيتون والفاكهة المنتثرة بين السهول والهضاب ، وكان

---

(١) الصهوات : جمع صهوة ، وهى مقعد الفارس من الفرس .

الوقت ربيعاً ، والنسيم رقيقاً ، فأطلق لفرسه العنان ، وهو ينشد الشعر ، ويتغنى بزوجه الجميلة ، ويبنى الآمال الكبار على اتصاله بسيف الدولة . وحين أدركه الليل أوى إلى فُنْدُق فنال من طعامه وشرابه، ثم استراح به إلى الفجر ، وواصل السير فى طليعة النهار ، حتى بلغ حلب فى وقت العشاء الآخرة ، فحطّ رحاله فى دار ابن عمه أبى زُهَيْرَ الحَمْدانى ، وكانت بالقرب من « ساحة الناعورة » ليستقبل سيف الدولة فى الصباح .
وكانت مدينة حلب من أعظم مدن الشام فى ذلك الحين ، وكانت تلى دمشق فى المنزلة ، تقع على نهر قُويق ، ويحيط بها سور عظيم سامق بنى بالحجر الأبيض الضخم ، به ستة أبواب ، وإلى جانب السور قلعتها الحصينة التى تُطِلّ على المدينة شامخة متحدية ، تَرْبض أمامها كما يَرْبض الأسد أمام العرين ، وإلى الغرب منها جبل الجَوْشَن . والمدينة فسيحة الطرق ، فخمة القصور ذات الطابع البيزنطىّ ، كثيرة المساجد والفنادق والمتاجر والحدائق والبساتين ، وفى وسطها دار عَلْوة التى يقول فيها البحترى :

تناءت دار علوة بعد قرب   فهل ركبٌ يبلّغها السلاما ؟
وجدّدَ طيفُها عتباً علينا   فما يعتادنا إلا لماما[١]
ورُبَّتَ ليلة قد بتّ أسقى   بعينيها وكفَّيها المداما

(١) يعتادنا لماما : يزورنا زيارات قصيرة قليلة متباعدة .

واشتهر أهل حلب بالثراء والظُّرف والأدب ، وازدحم بها السكان من عرب وترك وأرمن وروم ، وكثر بها الجنود المرابطون للقتال .

وزاد ازدهارها فى عهد سيف الدولة ، فقد دخلها فاتحاً فى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بعد أن انتزعها من أيدى الإخشيد ، وكان سيف الدولة بطلا شجاعاً بعيد مدى الغايات ، أديباً شاعراً جواداً ، جعل حاضرة ملكه مثابة[1] للعلماء والشعراء والأدباء الذين هرعوا إليه من أقطار الأرض ، بعد تفكك الدولة العباسية ، فأغدق عليهم ، وقيّدهم بإحسانه « ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا » فعاشوا من نعمه فى ظل ظليل . وكان من أشهر من اتصل به المتنبي والصنوبرى والنامى وكشاجم وابن نُباته السعدى وابن خالويه وابن جِنّى والفارابى .

استيقظ أبو فراس فى الصباح ، واستعدّ للقاء سيف الدولة ، فركب جواده قاصداً أرض الحلْبة ، وهى فى سفح جبل الجوشن . فوصل بعد قليل إلى القصر وكان رفيع البناء ، بلغ الغاية فى الفخامة والاتساع ، يقع على ضفة نهر قُويق . وقد بذل فيه المهندسون والبناءون والمصورون كل ما فى مُكنة البشر من إبداع ، وزينت أبوابه وحيطانه وسقوفه بالنقوش البارعة ، والتهاويل الرائعة واتسعت به الغرف والأبهاء ، وكان بقاعته الكبرى وهى قاعة السفراء خمس قِباب يحملها اثنتان وأربعون

---

(١) المثابة : مجتمع الناس .

ومائة سارية من الرخام الأبيض الناصع المحلّى بالذهب ، وبها مئات من النوافذ الزجاجية البديعة الألوان . أما الأثاث والرياش ففوق ما يصف الشعر ويرسمُ الخيال . وقد أحاطت بالقصر الحدائق والبحيرات التى كان يجرى إليها الماء من تماثيل سمك ضخم صنع من الذهب ، ورُكِّبَتْ له عيون من ثمين الجوهر .

وصل أبو فراس إلى مدخل القصر فبهره ما رأى من مظاهر العزّ والسلطان ، وأقبل عليه كبير القصر يحيّيه عن سيده ، ويهنئه بسلامة الوصول ، فدَهش لكثرة العبيد والمماليك الروم الذين انتشروا فى أنحاء القصر يروحون ويجيئون فى حركة دائبة . وهاله ما رأى من كثرة القواد والجنود والزُوّار وأصحاب الحاجات . ثم استؤذن له فدخل على سيف الدولة فوقف له واعتنقه ، وأقبل عليه يرحّب به ويسأله عن منبج وأهلها . وكان سيف الدولة جسيماً قسيماً عربىّ الملامح واسع العينين ، له نظرات يلمع فيها الذكاء ، ويتجلّى الطموح ، وبوجنته اليسرى أثر لضربة سيف لم يذهب بوسامته . وقد أعجب بما رأى فى أبى فراس من البطولة وعلوّ النفس . وبينما هما يتبادلان الحديث إذ دخل قرعويه ، فقال سيف الدولة :

ــ هذا قرعويه يا بن عمى قائد جيوشى الذى أعددته للعظائم . فتقدم نحوه أبو فراس بالتحية ، وقد علم من قبل بأمره من نجلاء ، فرأى

رجلا بسّاماً وضىء الوجه ، يدل مظهره على صفاء النية وطهارة النفس ، ولكن فراسة أبى فراس كانت جديرة بأن تخترق الحجب ، وأن تنفذ من طبقات الرياء إلى ما وراءها من خبث وخديعة ، غير أنه رأى من الكياسة وحسن الرأى أن يجْزِى على ابتسام بابتسام ، وأن يخدع الرجل الذى يحاول خداعه ، فمدّ إليه يده فى حفاوة كريمة ، وأخذ يُطريه ويذكر ما وصل إليه بمنبج من أخبار شجاعته ونبله وإخلاصه فى خدمة الأمير . ثم ابتسم فى وجهه وقال :

— وطالما تمنيت يا سيدى أن أسعد بلقائك، فلما شملنى ابن عمى بفضله كان تحقيق هذه الأمنيّة من أعظم مننه . ثم شدّ على يديه قائلا : أريد يا قرعويه أن نكون صديقين مخلصين ، فهل تحب أن تكون لفارس من فرسان بنى حمدان صديقاً مخلصاً ؟

— أحب ؟ ! هذا شرف أتيه به على الدنيا ، وسنجتمع يا سيدى فى حرب وفى سلم ، وستجد منى فيهما الأخ الوفىّ والصاحب الأمين .

وبعد انصرافه اتجه سيف الدولة إلى ابن عمه مفكراً ، وقد طافت غمامة من الحزن فوق وجهه الوسيم وقال :

— لقد دعوتك يابن عمى فى وقت أحسّ فيه أن قوائم عرشى تهتزّ من تحتى لما يعصف بها من خطوب ، وما يحيط بها من كوارث ، فقد أخذت قبائل العرب المعادية تتنمّر حول حدود الدولة ، وتتحيّن

فرصة للوثوب ، فإن لها عند بنى حمدان تراتٍ قديمة لا يمحوها كر السنين . والعربى ينسى كل شىء إلا دين الشرف ، ويجفُّ عنده كل شىء إلا الدماء . فلا بدّ لنا من يقظة الذئب ، ووثبة النمر ، وفتكة الأسد ، حتى نستأصل هذا الصَّلَفَ من رءوسهم . ثم هناك دولة الروم ، وهى ألدّ أعداء الإسلام من ناحيتين : ناحية الدين ، وناحية السياسة والملك ، فإنها لا تنسى ذلك الملك الضخم الذى دكّ الإسلامُ حصونه ، وثلّ عروشه ، ومزقه إرْباً إرباً ، بعد أن كانت أقوى ممالك الأرض وأعظمها عُدّة وعديداً ، وأبعدها ملكاً وأطرافاً . لن تنسى مملكة الروم ما نكبها به الإسلام ، وما أصابها من سيوف المسلمين ورماحهم ، حتى أصبحت دويلة لا شأن لها ولا خطر ، لا تَحكُم إلا على القسطنطينية وبعض البلدان حولها. وقد أيقظتها هذه النكبة فأخذت تُعدُّ العُدَّة بالليل والنهار ، لتسترد ما فاتها من مجد ، وتمحو ما نزل بها من هزيمة . وقد اتّفق لما يريده الله لى من خير أو شر ، أن تُتمّ استعدادها فى هذه الأيام ، وأن يختارنى القَدَر للدفاع عن ممالك الإسلام والذود عن حياضه . وزاد فى جسامة الأمر وهوله أنّ ملكهم « نيقفور فوكاس » رجل من أكبر الدهاة ، وقائد من أعظم القواد ، وسيكون الصراع بيننا عنيفاً ، وستكون الحرب بيننا محتدمة الأوار ، وسيرى الناس وسيشهد التاريخ أن الفتى العربىّ استطاع بسيفه ورمحه وقلّة عديده أن يهزم دبابات الروم ، وأن يبدّد جيشهم اللّهام ، وأن يُطفئ نارهم اليونانية ، التى يرسلونها على الجيوش

كأنها قطَع من الجحيم ، لا تـَذَرمن شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم . لهذا يا بن عمى دعوتك لتكون عضدى وساعدى ، ولينال سيفـُك من النصر ما هو جدير بآل حمدان .

— لقد دعوتَ يا بن العم مجيباً ، واخترت أمضى سيوفك حدّاً ، وأصلبها مـَكْسِراً، ولم يخلق الله بنى حمدان إلا لبذل الرغائب ودفع النوازل ، وإن هذا الملك الذى بنيناه بسيوفنا سنصونه بسيوفنا وأرواحنا ، لقد كنتُ أتحرّق شوقاً إلى خوض المعامع ، وآسَفُ لسيفى وهو يكاد يصدأ فى غمده ، فإذا دعوتنى اليوم إلى نصرتك ونصرة البيت الحمدانى الكريم ، فإنما تدعو إلى الماء هـَيْمان، وإلى الطعام سَغْبان . إن السيف الذى يسعـَد بالحرب إلى جانب سيف الدولة لسيـّد السيوف !

— رعاك الله أبا فراس ، وجعل مقدمك علينا يُمناً وبركة ، لقد منحتك ولاية منبج ، وأعددت لك كل ما تحتاج إليه من سلاح وعُدّة ، وجعلتك قائداً كبيراً بين قواد جيوشى ، فاستعدّ فقد تتمتع بلقاء الروم قريباً . ثم إنى وهبت لك قصراً بالقرب من « برج أبى الحارث » وأمرت أن يُبْذل كلّ جهد فى فرشه وتأثيثه ، وأن يكون به من الجوارى والخدم ما يليق بمثلك . اصعد الآن إلى أختك أسماء فإنها فى شوق إليك .

خرج أبو فراس ، فكان أول من التقى به محمد الخالدى ، وكانت رسائل أخته فاطمة قد زوّدته بكل ما كان بين أبى فراس ونجلاء ، فخطا نحوه قائلا :

ـ أنا محمد الخالدى يا سيدى أمين خزائن الكتب بالقصر ، أريد أن أشرُف بلقاء البطل الشاعر ، وأحب أن يَعُدَّنى من أوفى أصدقائه .
ثم مدّ إليه يده فى شوق وقال : سمعنا شعرك يا سيدى ـ قبل أن نراك ـ فى سجع الحمائم ، وشربناه فى كئوس المُدام ، وشممناه فى أكمام الزهر .
فشدّ أبو فراس على يديه ، ثم مد ذراعيه لعناقه ، وهو الحبيب أخو الحبيبة ، وقال :

ـ ما أسعدنى برؤيتك ، ثم ما أسعدنى أن تكون لى أخاً حميماً .
أما الشعر الرائع الذى تتحدث عنه فلن يصل إلى مدَى شعر الخالديّين .
هل انتهى العراك المحتدم بينكما وبين السرىّ الرفاء ؟

ـ لا يا سيدى ، إنه لن ينتهى ، وهذا الرجل عجيب أمره ، فقد أخذ يذيع فى كل مكان أننا نسرق شعره وندعيه لأنفسنا ، ويعلم الله أن شعره أهون من أن يدّعيه غلام ناشئ . ثم إن اللئيم أراد أن يؤكّد هذه الدعوى فذهب إلى أحد الورّاقين بحلب واتفق معه على أن يكتب له نُسَخاً من ديواننا فكتبها ودسّ فى غضونها كثيراً من شعره ، ثم صاح بين الأدباء : لقد وجدت الدليل ! اذهبوا إلى محمود الورّاق تجدوا أن ديوان الخالديين به كثير من شعرى ! وهنا أقبل عليهما قرعويه وهو لا يزال بشّاً يكاد يسيل رّقة وَظرْفاً ، وبعد أن حياه الخالدى انطلق يقول :
ـ هل يقبل سيدى أبو فراس وسيدى قرعويه أن يُشرّفا بيتى الليلة بعد الغروب ، ليبعثا فيه روحاً من البهجة والسرور ؟ إن فعلا كان

ذلك مِنّة منهما وتكريماً . فقبلا الدعوة، وغادرهما أبو فراس ليصعد لزيارة أخته .

وفى ذلك الحين كان فارس يقفز من صَهوة فرسه عند باب القصر ، ويُسرع وعليه وَعْثاء[1] السفر إلى حجرة قرعوية، فلما مثل أمامه اتجه إليه قرعويه وقال :

— لقد أبطأتَ علينا يا فهد ، فما وراءك ؟

— مكثت يا سيدى أياماً أرقب نجلاء حتى تحققتُ أنها تكثر من لقاء أبى فراس ، فقد شهدتهما معاً فى أحد أرباض منبج ، وكانا قد خرجا للصيد . أما سبب إبطائى فلأنى انتظرت حتى سافر أبو فراس وسافرت نجلاء بعده بساعة أو ساعتين .

— هذه الخبيثة التى طالما ما طلتنى ،وكلما ظننت أنى تملكتها فرّت من يدى كما يفرّ الماء من خلال الأصابع ! أما مولانا أبو فراس فلى معه شأن أىّ شأن ! ! ثم فكر طويلا وقال :

— إنه سيتعشى الليلة فى دار الخالديين ، وسوف يخرج فى أخريات الليل مع غلامه ، فهل تستطيع أن تجمع له عصابة تهجُمُ عليه فى الطريق وتقتله ؟

— إنى أعرف أشرار بنى كعب ، فكم يكفى لقتله ؟ ثلاثة ؟

---

(١) وعثاء السفر : مشقته وتعبه .

ــ لا . إنه فارس شديد المراس[١] ، وفى رأيى أنه يَقْهَر ما دُون العشرة .

ــ سأجمع له اثنى عشر فارساً ، وسنكمُن له فى الطريق ، أين يسكن ؟

ــ فى قصر سيف الدولة أمام برج أبى الحارث .

ــ حسن يا سيدى . لن يضايقك بعد اليوم .

كان لقاء أبى فراس لأخته صورة صادقة من الحب والحنان ، فقد كانت أسماء شديدة الشوق إليه ، وهى التى دفعت سيف الدولة إلى دعوته ، وهيأت له المنزلة عنده ، وبعد أن سألته عن أمها قامت إلى خزانة لها وأخرجتْ عُلبة من الذهب ، وقالت :

ــ أتعرف ما فى هذه العلبة ؟

ــ كيف أعرفه يا أختى ؟

ــ إنى وجدتها فى خزانة أبيك بعد موته ، وقد كتب عليها بخطه « هدية إلى ولدى أبى فراس » فحفظتها لك طول هذه المدة . ففتحها أبو فراس فرأى فيها لؤلؤة ثمينة بقدر البندقة لُفّت فى ورقة ، فوضعها فى جيبه ووعد أسماء بأن يحتفظ بها ، ثم سأل : ومن أين جاءت هذه اللؤلؤة لأبى ؟

---

(١) شديد المراس : شديد البأس والقوة .

— أهداها إليه قائد عظيم من قواد الروم ، وطلب منه أن يحتفظ بها ، ولعل لهذه الهدية معنى لا نعرفه .

— قد يكون .

وفى هذه الأثناء دخلتْ رملة أخت سيف الدولة فوقف أبو فراس يحييها فى أدب ومجاملة . وكانت رملة فى الرابعة والعشرين من عمرها أميل إلى القصر منها إلى الطول، ليس فى وجهها من آثار الجمال إلا شمم فى أنفها ، وبريق شديد فى عينيها ، وقد انصرف عنها الخطَّاب إما لمنزلة أخيها — وقد يكون بعدُ المنزلة أحياناً من أسباب العُنوس[1] والبوار — وإما لأن القدر قسا عليها فلم يرض أن يعطيها الجاه والجمال معاً ، فانصرف الأمراء عنها ، حتى كاد يَذْوى شبابها ، ويَذْبُل عودها، وتقع فى تلك الوهدة الموحشة التى ترى فيها الفتاة أنها فى سنّ الأم وليست أمًّا ، وفى عداد الفتيات وليست فى سن الفتيات .

نظرت رملة إلى أبى فراس فرأت فيه الأمير المرح الوثاب ، والفارس المقدام ، فجالت بنفسها خواطر ووثبت آمال : هذا هو الرجل الذى يجب أن تتزوج به ، إنه الرجل الكامل الذى تحنّ إليه ، إنه قريبها وصنيعة أخيها، فلم لا يخطبُها منه ؟ ولكن ربما كان يهولُه عظمُ مكانها ، وبُعدُ شرفها . وتجتهد رملة فى أن تجذب إليها انتباهه . ولكنّ أبا فراس

---

(١) العنوس : مصدر عنست الجارية (من باب دخل) أى طال مكثها فى منزل أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج .

كان صخرة لا تحس ، ورجلا بغير قلب . وكيف وقد أعطى قلبه كله لنجلاء ؟ وادّخر جميع نظراته لنجلاء ؟ لقد كان يحادثها فى رفق وأدب ، وينصت إلى حديثها إنصات الخاشع المطرِق ، ولكن نظرة منه واحدة لم تنم عن ميل أو تدل على رغبة فى إطالة الحديث .

وحينما همّ بالانصراف لم ترفيه رملة إلا مُهْراً جموحاً . وعند أذان المغرب ركب أبو فراس جواده وخلفه مملوكه سهم الذى أهداه إليه سيف الدولة ، وذهب إلى دار الخالديين ، ووثبت نجلاء للقائه فرحة بسّامة ، تحييه وترحّب به ، ثم انطلق بهما الحديث إلى شُعب شتى ، فتذكر هديّة أبيه فأخرج العلبة من جيبه وقال :

– هذه يا نجلاء أغلى هدية عندى ، أقدمها لأغلى فتاة عندى ، فتناولتها نجلاء وقالت :

– ما أجمل هذه العلبة ! انظر ، إن عليها نقوشاً رومية ؛ ثم فتحتها فبهرتها اللؤلؤة بصفائها وعظم حجمها ، وقالت دَهشة :

– ما رأيت لؤلؤة مثلها . من أين لك هذه اليتيمةُ العصماء[1] ؟

– هدية من أبى ، ولو عرف أننى سأحلى بها أجمل نحر فى الدنيا لأهدى إلىّ كل ما فى خليج عُمان من لآلئ .

– وما هذه الورقة التى لُفّت بها ؟ إنى أرى عليها كتابة بالرومية

---

(١) العصماء : النادرة .

فما معناها يا ترُى ؟

ـ لا أدرى ، غير أن اللؤلؤة كانت هدية من قائد عظيم من قواد الروم . وهنا أسرعت نجلاء فوضعتها فى خزانة حليها ثم قالت :

ـ متى نُذيع بين الناس خبر خِطْبتنا ؟

ـ لكل شىء أوان يا سيدتى ، ومن الخير أن تبعثى إلىّ بدعوة كلما دعوت الأدباء والشعراء للحديث والسمر .

ـ حسناً يا سيدى سأرسل إليك سلمى العراقية وأرجو أن أراك بين الحين والحينْ ، فإن حضورك مجالسى شرفاً وسعادة .

وفى ذلك الحين قدم الخالديان ومعهما قرعويه ، ومدت المائدة وعليها أشهى الألوان ، وكان قرعويه مرحاً ضحوكاً كثير المُزاح والدُّعابة ، وبعد الطعام أعدّت أكواب الشراب ، وأخذ القوم فى السمر ، وغنّت نشوة الدمشقية من شعر أبى فراس قوله :

أساء فزادته الإساءة حُظوَة حبيبٌ على ما كان منه حبيب
يَعُدّ علىّ الواشيان ذنوبَه ومن أين للوجه الجميل ذنوب ؟

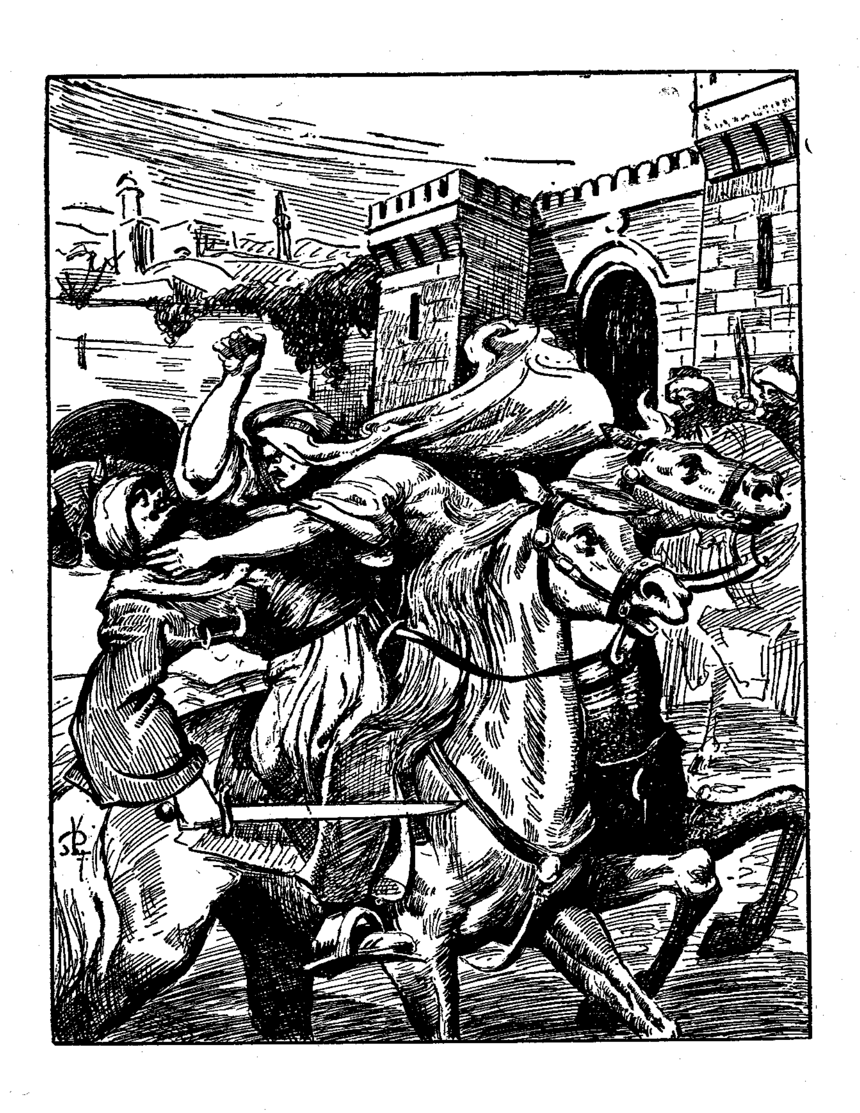
وقوله :

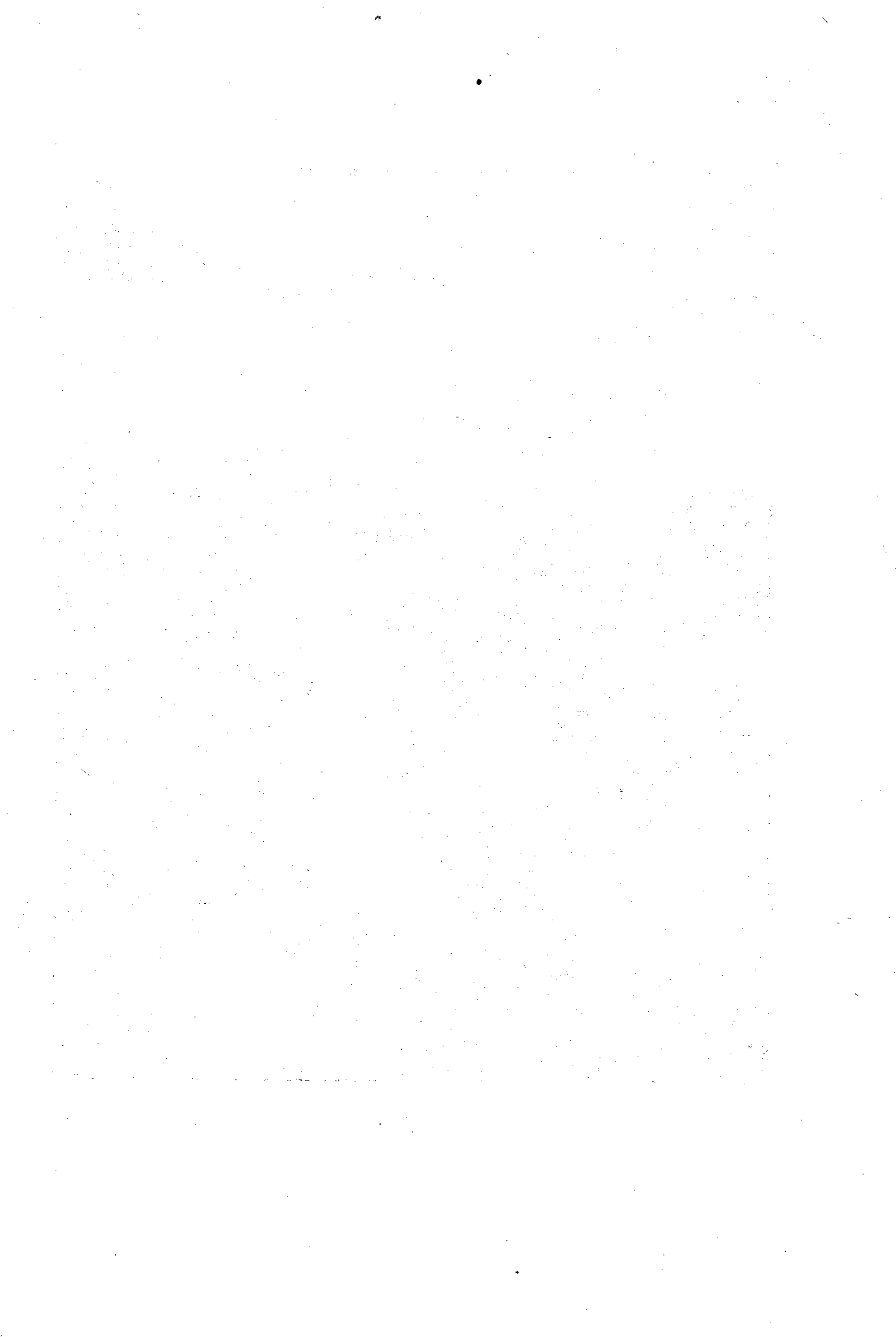
قد كان بدرَ السماء حسناً والناسُ فى حبه سواءُ

فزاده ربُّــه جمــالا تمّ بــه الحسن والبهاء
لا تعجبوا ، ربنــا قديرٌ يزيد فى الخلق مــا يشاء

فماج القو م من الطرب وخرجوا عن وقارهم .

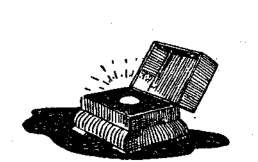
وتحيَّن قرعويه فرصةً فاستأذن من صاحبي الدار فى الخروج ، وبعد أن انتصف الليل قام أبو فراس بعد أن شكر الخالديّين ، وامتطى جواده وخلفه سهم ، وكان الظلام حالكاً ، وقد خلت الطرق من السابلة ، وبينما هما يمران بميدان أمام باب اليهود ، إذ خرجت عليهما ثُلَّة من الفُرسان كانت تختبئ فى أحد الدروب ، فوثبت على أبى فراس فطارت النشوة من رأسه ، وعاوده عزمه ورأيه ، فدار حولهم حتى حاذى جانبهم ، فأرادوا أن يتجهوا نحوه بخيولهم ، فاضطربت الخيل واصطكّ بعضها ببعض ، واهتبل أبو فراس هذه السانحة فأغمد حسامه فى فرسين فسقطا على الأرض ، ثم تراجع قليلا ، فأراد الفُرسان أن يتبعوه فارتطمت الخيل بالفرسين الساقطين ، فانقضّ عليهم كما ينقضّ النمر ، وأعمل فيهم سيفه ضرباً وتقتيلا ، وفى هذه اللحظة هجم عليه زعيمهم وكان ضخم الجثة ، وكأنه قطعة الجبل ، فضرب بسيفه سيف أبى فراس فأطاره من يده ، فوثب أبو فراس من سرجه إلى صهوة جواد هذا الفارس الشعشاع ، حتى إذا كان منه وجهاً لوجه ، مد ذراعه الحديدية إلى عنقه فعصره بيسراه . واختطف بيمناه سيفه من يده . وضربه ضربة أطاحت رأسه .





فسقط مجدّلا . وحينما رأى من بقى من العصابة ما حلّ بزعيمهم طاروا من الذُّعْر ، وهم لا يكادون يصدّقون أنهم أحياء ، وعاد أبو فراس إلى جواده فامتطاه كأن لم يحصل شىء ، وكأنّ هدوء الليل لم يزعجه صليل سيف ، ولا وثبة جواد ، وجال بخاطره وهو فى طريقه إلى داره أن يترنم بقوله :

إذا كان منا واحدٌ فى قبيلــة علاها ، وإن ضاق الخِناق حَماها
وما اشتورَتْ إلا وأصبح شيخها ولا احترَبتْ إلا وكان فتاها(١)



(١) اشتور القوم : شاور بعضهم بعضاً . واحتربوا : تحاربوا .

٦

عاش أبو فراس بحلب فى ظل الرَّفْه والنعيم، واختلط بفُرسانها وشعرائها ، فكان النجم المتلألئ بين الفريقين، والمفرد العَلَم فى الحلْبتَين ، ولقِى فى كنف سيف الدولة من بعد المكانة ورفاغة [1] العيش ، ونفوذ الكلمة ، ما تطيب به نفس الكريم . وكانت سلمى العراقية تحمل إليه رسائل الدعوة من نجلاء بين فترات قصيرة لا تتعدّى اليومين ، فعاش فى ظِلَّين من النعيم والجاه سعيداً جذلان هانئاً . وفى ذات يوم عزم على أن يبتاع سيفاً ليعتاض به عن السيف الذى فقده ليلة محاولة اغتياله . فأرشده خادمه سهم إلى صانع السيوف « لوسيان » وهو رومىٌّ أسرب العرب منذ عشرين سنة، استطاع بعد أن مرّ خمس منها أن يَفْدىَ نفسه . وقد طابت له الإقامة فى حلب ، وكان له من دماثة خُلُقه، وبراعته فى فنِّه ، ما حبّبه إلى كبار الأسر وعظماء القواد بالمدينة، فراجت صناعته ونمتْ ثروته ، وكان مع تمسكه بدينه يرى أن الأديان كلها وسيلة للحياة الفاضلة ، ووازع للناس عن ارتكاب الآثام، وحَوْط من أن يعبَث بعضهم بحقوق بعض، فلم يكن عنده ذَرَّة من التعصب ، ولم يكن ينظر

---

(١) رفاغة العيش : اتساعه ولينه وهناءته .

إلى مخالفه فى الدين نظرة الحقد والضغينة ، وكان يقول : إن الأديان نزلت لإصلاح الحياة ، وإن النفوس أحقّ ما فى الحياة بالإصلاح ، فإذا سببت العداوة والبغضاء حاربتْ أول أغراضها ، وانحرفتْ عن أجلّ غاياتها . لذلك كان شديد التمسك بآداب الإسلام والمسيحية ، حريصاً على تبجيل رجالهما ، يقبّل يد القسيس كما يقبّل يد إمام المسجد . ولم يرْزَق من النسل إلا بنتاً هى « صوفيا » الجميلة التى كانت بِدْعاً فى الحسن ، وتمثالا إغريقياً حيًّا يتألق فيه بريق الشباب . ولكنها أحاطت جمالها بسياج من الرزانة والفضيلة ، ذاد عنه غربان الشرّ . علّمها أبوها العربية ، وأدّبها فأحسن تأديبها ، فاتصلتْ ببنات الأسر الشريفة بالمدينة ، وأصبحتْ بينهم مضرب المثل فى الجمال والذوق المرهَف والخُلق الكريم . وكانت كثيراً ما تلازم أباها فى مصنعه ، وتعينه فى شئون عمله .

ركب أبو فراس جواده ، ووصل إلى مصنع لوسيان فعرض عليه كثيراً من السيوف فأباها ، وطلب إليه أن يصنع له سيفاً وصفه له . وبينما هو فى الحديث إذ لمح صوفيا فبهره ما رأى فيها من حسن هادئ ، فابتسم نحوها وقال يخاطب أباها :

— وما لهذه الفتاة ومصانعَ السيوف والرماح ؟ إن لها من نظراتها سيوفاً تتحدّى صَمصامة عمرو ، ومن قدها رمحاً يسخر من رماح سَمْهر . ثم

تقدّم نحوها قائلا : سعد صباحك يا فتاتى . فحيّته صوفيا فى أدب مرتجل . ثم أخذت تحدّثه فى لطف وثقة جعلاه ينظر إليها كما ينظر إلى صورة فى محراب ، وملأ قلبه إجلالا لفضيلة الحسن وحسن الفضيلة . ولمّا أعجبه انطلاق لسانها وبراعة عبارتها سأل دَهِشاً :

ــ أدرستِ العربية ؟

ــ إنى أقرؤها وأكتب بها كما لو كانت لغة أهلى ووطنى .

ــ أنت خير منى يا صوفيا ، فإننى لا أعرف إلا لغة واحدة ، ولكنها سيدة اللغات ، فهى لغة الشعر والأدب والعلم ، لم تترك خَلجة لنفس ، أو لمحة لعقل ، إلا ترجمت عنها بأوضح بيان .

ــ ولغتى لا تقلّ عن العربية سطوعاً وصدق أداء ، فهى لغة الشعراء والفلاسفة .

ــ ولكنى أظنها صعبة على من رامها .

ــ وأى شىء دعاك إلى هذا الظن وأنت لم تحاول تعلمها ؟ إن اختلاط المسلمين بالروم يوجب ــ فيما أظن ــ على رجال الإسلام أن يلموا بلغة جيرانهم .

ــ لو تلقيتُها عنك لأتقنتُها فى أيام ، ولكن من لى بهذا ؟

ــ إن الأمر هين ، فلن يكون شىء أحبّ إلى نفسى من أن أكون أستاذة أبى فراس البطل .

– هاتى يدك . اتفقنا . سأكون من غد تلميذك المثابر . ولكن احذرى فقد يغضبك تبلّد ذهنى ، فلا تجدين لضربى إلا سيفاً أو رمحاً .
فابتسمتْ فى لطف وقالت :

– اطمئن يا سيدى فإن أىّ سيف لن يجرؤ على أن يمتد إلى سيف أرهف منه حدًّا ، وأصدق فِرِندا . وعندئذ ودّعها أبو فراس وحيّا لوسيان وانصرف .

وبعد أيام دخل فهد غرفة قرعويه فرآه ، وهو يكاد يتميّز من الغيظ ، لا يستقرّ فى مكان من القلق ، فلما نظر إليه سيده صاح به قائلا :

– أتعرف أنى أرسلت إلى نجلاء منذ ثلاثة أيام استأذن لزيارتها فأبت واعتذرت بالمرض ، مع أنى أعرف وجواسيسى يعرفون أن أبا فراس يزورها فى كل يوم أو يومين ؟ إن هذا الرجل شغلها عنى ، وقد كانت قبل أن تعرفه أميل إلى القرب منها إلى النفور . ويل لهذا الرجل منى ، إن إنساناً واحداً لم يستطع قبل اليوم الوقوف فى طريقى ، ولو كان هذا الإنسان سيف الدولة نفسه ، فما لى أجبن أمام هذا الفتى الغِرّ ؟ وما لحيلى تضيق بالفتك به أو صدّ غوائله عنى ؟ جرّدنا له اثنى عشر فارساً من صعاليك بنى كعب لقتله غِيلة فهزمهم منفرداً ، وقتل زعيمهم بسيفه ! أجنىٌّ هو من جنود سليمان؟أم خيال طائف لا يمسه سيف ولا يجرحه سنان ؟ إننى إن أبعدته عن نجلاء خلصَتْ لى وحدى ، ونسيتْ حبها له فى ظلال

ثروتى ونعمتى . هل عندك من حيلة ؟

— نحن يا سيدى الأيدى الباطشة ، وأنت العقل المفكر .

— اسمع يا فهد . لقد علمت أنه لا يزورها إلا إذا دعته برسالة تبعث بها مع سلمى العجوز . وهذه العجوز صورة من إبليس على الأرض فى الخداع والخيانة والفساد . وهى إذا أسمعناها رنين الذهب طار عقلها ، وباعت أمانتها ووفاءها بيع الخسار ، فإذا استطعنا أن نجتذبها إلينا ، وأن نطلب إليها ألا توصل الرسائل إلى أبى فراس امتنع عن الذهاب إلى نجلاء وقلق ، وأسرع فكتب إليها رسالة يسألها عن سبب هجرها ، وأغلب الظن أن يبعث بهذه الرسالة مع خادمه سهم ، وسهم صنيعتنا ، وكثيراً ما استخدمناه فى بثّ الدسائس لأعدائنا ، فإذا أخذ من سيده أية رسالة أوصيناه أن يسلمها للعجوز ، وبهذه الطريقة لا تصل رسائل نجلاء إلى أبى فراس ، ولا تصل رسائله إليها ، فإذا امتدّ الزمن ازدادت القطيعة ، وأساء كلٌّ الظن بصاحبه ، وأدركتْه العزّة فنفر نفور الإباء . وهنا أظهر لنجلاء بمظهر الصديق الوفىّ الساخط على أمثاله من الأدنياء ، ما رأيك فى هذه الحيلة ؟

— الحيلة محكمة الأطراف ، ولكنى أضيف إليها حاشية تزيد فى إحكامها وإتقانها . لقد تابعت أبا فراس منذ أيام فرأيت أنه يزور مصنع لوسيان الرومىّ كل صباح ، ليتلقى درساً فى الرومية على ابنته صوفيا ، وسأوحى إلى سلمى العراقية أن تتحدث إلى نجلاء بأن الناس يهمسون

بافتتان أبى فراس بصوفيا ، حتى إذا رأت من سيدتها شكًّا فيما تقول عرضت عليها الرسائل التى سلَّمها إليها سهم ، وزعمت لها أنها صادرة من أبى فراس إلى صوفيا ، حينذاك يغلى صدرها بالغيرة ، ويدركها ما يدرك النساء من السخط على من ينبذ ودّهن ، ويجرح كبرياءهن .

— مرحَى مرحَى يافهد ! لو أنصفوك لسموْك ثعلباً ! اذهب وافعل ما شئت فإنك بوسائل الخداع جِدّ عليم .

وتحيَّن فهد الفرص للقاء العجوز ، حتى عثر بها مرة فى سوق النسَّاجين ، وهى تحمل تختاً من الثياب ، فحياها قائلا :

— سعد صباحك يا أم . فقبَّضَتْ من عينيها ، وكانت قصيرة النظر ، حتى إذا عرفته ضحكت فى سخرية ولؤم ، ثم قالت فى دُعابة لاذعة :

— لقد كان صباحاً سعيداً قبل أن أكون أمًّا للفهد .

— إن الفهد نَمِر صغير .

— والبرغوث فيل صغير .

— لقد نُهينا فى مأثور الخبر عن سبّ البرغوث ، لأنه أيقظ نبيًّا للصلاة .

— لو نُسج غطاء أمك من البراغيث ما استيقظت لعبادة .

– إن أمي لم تحمل فى شبابها ما حملتِ مِن مآثم وأوزار .
– لو لم يكن إلا أنها حملتك لكفى .
– حملتنى لأحمل على عجائز السوء .
– ولتفرّ من الحرب .
– لو كان للحرب مثل نابيك وخرطومك وعينيك النضّاختين [١] ، لفرّ منها أشجع الشجعان .
– إن أملك والله أحق منى ، فلمَ لا تشير على سيف الدولة بأن يجرّد منها جيشاً يطهر به البلاد من غزوات الروم ؟
– إن الروم تغير على التخوم والدروب ، وأنت تغيرين على ما فى الجيوب .
– لو وجدتُ فى جيبك مالا لعلمتُ أنك سرقت ثوب غيرك .
– إن فى جيبى مائتى دينار .
– إن ربع دينار منها يكفى لقطع يدك .
– ولو أعطيتك المائتين لقطعت بها لسانك فكفىّ عن هذا السباب .
– إن عرضك يُغرى اللسان بالقذف ، ولو حاولتَ إسكاته بكنوز قارون .

---

(١) يريد بالنضاختين : الدامعتين من رمد أو نحوه ، من قولهم : عين نضاخة ، أى فوارة غزيرة الماء .

— وعرْضُك لا يباع بدرهم .

— لأن الكلاب تلِغ فيه . ثم ضحكت ضحكة الظافر المنتصر ، وربَّتت كتفه وقالت :

— من أين لك هذا المال يا جُرَذ ؟

— من قرعويه .

— هنيئاً لك بسيدك !

— وهنيئاً لك بسيدى !

— أنا !

— نعم أنت ، فالمال لك ! وأنا الناقة التى تحمل الماء وهى عطشى .

— متى بدأ سيدك يتصدق على العجائز ؟

— حينما علم أن فى أيديهن مفاتيح الجنة .

— إن جنتى أغلى من أن تفتح بمائتى دينار .

— هذه خطوة تليها خطوات ، ونفحة تتبعها نفحات . وثمن أول طرقة على ذلك الباب القدسىّ الطاهر .

— اكشف اللثام عن القول ودعنى من الكُنَى .

— تعلمين ميل سيدى المبرّح إلى نجلاء . وتعلمين أنها تقابل فُتُونه بالصدّ ، ولن يغيب عنك أنها بعد صداقتها لأبى فراس زاد إعراضها وجفاؤها لسيدى .

ـ أعلم هذا ، وأعلم إلى جانبه أنى لو كنت فى شباب سيدتى وجمالها ، ما عملتُ غير ما عملتْ . إن أبا فراس لو عَلِمتْ به الحور لفرّتْ من الجنة للقائه . وأين منه سيدك يا لُكَع[1] ؟

ـ ذلك المتكبر الصَّلِف ؟ !

ـ هو متكبر صلف علىّ وعليك يا غبىّ ، أما فى مجالس الحسان فحنان وسحر ورقة ، وعلى أية حال ماذا تريد منى ؟

ـ أريد أن تقطعى الصلة بينه وبين نجلاء .

ـ وكيف ؟

ـ لا توصلى رسائلها إليه، وسنُغرِى خادمه سهماً بألا يوصل رسائله إليها .

ـ هذا حسن ، ثم ؟

ـ ثم تشتد الجفوة بينهما ، ويظن كلاهما بالآخر الظنون .

ـ معقول . ثم ؟

ـ ثم تنفثِين سمومك، وتهوّنين أمره على نجلاء ، وتدّعين أنه مُدَلّه بحب صوفيا بنت لوسيان ، وتطلعينها على رسائله التى سيوصلها إليك سهم ، زاعمة أنه بعث بها إلى صوفيا ، وأنك حصَلت عليها من خادمها . فاتكأت العجوز بذراعها على كتفه . وغاصت فى تأملات

---

(١) اللكع : اللئيم .

عميقة ، ثم رفعت رأسها وقالت وهى ذاهلة :

كنت أظن أن يجلب مصنعاً واحداً للدسائس هو رأسى ، ولكنى الآن أطرق إجلالا لمصنع جديد فى رأس جديد. ثم عاد إليها جشعها فقالت :

— إن المكيدة قطعة فنية رائعة ، ولكن الثمن لتنفيذها لا يزال قليلاً .

— إن سيدى لا يفكر فى الثمن كيفما عظُم ، فهو يضع فى يدك كل أسبوع مائتى دينار . أتقبلين ؟

— قبِلت . فأسرعت يد فهد إلى جيبه فنفحها بالمال .

وكان الاتفاق مع سهم سهلا ، ومرت الأيام ، واستمرت نجلاء تبعث برسائلها مع العجوز ، والعجوز تصونها فى حرز حريز . وقلق أبو فراس ، فدعا بسهم وزوّده برسالة إلى نجلاء كتب فيها :

إليكَ أشكو منك يا ظالمـى　　إذ ليس فى العالم عونٌ عليك
أعانك الله بخـير أعِــن　　من ليس يشكو منك إلاّ إليك

وذهب سهم ، وأعطى العجوز الرسالة ، وزوّق لسيده كلاماً أخبره فيه أنها تلقت الرسالة متضجرة ، حتى إذا قرأتها التفتتْ إليه وقالت : قل لسيدك : إنى قرأت الرسالة. وغضب أبو فراس وزمجر وتطاير الشرر من عينيه ، ومد يده إلى قرطاس كتب فيه :

وكنَى الرسولُ عن الجواب تظرّفا　　وإذا كنى فلقد علمنا ما عنَى
قل يا رسول ولا تحاشَ فــإنه　　لا بدّ منــه أساء بى أم أحسنا

الذنبُ لى فيما جنـاه لأننى   مكَّنته من مهجتى فتمكنا

ثم دفع به إلى سهم وصاح فى وجهه قائلا : يجب أن تعود منها برسالة . ثم جلس ينتظر قلقاً مضطرباً ، يـقـلِّب فى صفحات فكره فلا يرى أنه ارتكب إثماً ، أو اجترم جرماً . ويعود سهم وقد ارتسم الحزن على وجهه ، وصفرت يداه من أية رسالة ويقول فى تلعثم وخوف : لقد نهرتنى هذه المرة يا سيدى .

— نهرتك ؟ هكذا هنّ بنات حواء ! وقديماً قالوا :

« وليس لمخضوب البنان يمين » ثم انكبّ على رَقّ[1] كتب فيه :

الآن حـين عرفتُ رشـ   ـدى واغتديت عـلى حذَرْ
عنّفت نفسى فـانتهت   وزجـرت قلبى فازدجر
هيهات ! لستُ أبـا فرا   س إن وفيت لمن غدر !

وكانت الدموع تتناثر من عينيه وهو يكتب ، ثم أشاح بوجهه ومدّ يده إلى سهم بالرسالة وهو يقول : خذ هذه وألقها أمامها وأسرع دون أن تنتظر جواباً .

ولم تكن نجلاء خيراً من أبى فراس حالا فقد روّعها جفاؤه ، فكانت تذهب وتجىء فى دارها فى ذهول ووجوم . وكانت لا تزال تسأل العجوز وتلحّ علّها تجد فى حديثها الجاف المحرق واحة تلجأ إلى ظلها مما هى فيه

(١) الرق : الصحيفة البيضاء .

من عذاب مقعد مقيم ، حتى إذا نفـِد صبرها اتجهت إلى العجوز فى هيئة المستعطف الآمل وهى تقول :

– هل من سبيل إلى معرفة ما أصابه يا سلمى ؟

– خفقى عنك يا سيدتى ، فإن من أهان نفسه هان .

– إنى لم أهِنْ نفسى أيتها العجوز ، إن حبنا سماوىّ قدسىّ جفا هذه الأرض المظلمة الدنسة وطار مع الملائكة فى أفق كله طُهْر ونور ، إنى لا أحب إلا النفس الكريمة والخلق النبيل . أرأيتِ ما فعلتُ بقرعويه ذلك الغرّ الأبله ، الذى ظن أنه يستطيع أن يغزونى بجاهه وسلطانه وثروته ؟ فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت :

– عجيب شأن هذا الحب ؟ إنه لا يعطى إلا من لا يسأله . إن قرعويه فتى تود كل فتيات المدينة لو ينلْن منه كلمةرضا أو ابتسامة حنان ! وأين منه هذا الطائر القلق الذى يغرّد كل لحظة فوق فَنَن ، ويسكن كل ليلة فى عش جديد ؟

– اسكتى أيتها العجوز الماكرة . إن أبا فراس لا يسكن كل ليلة فى عش جديد . إن له من نبله وخلقه ما يرفعه إلى منازل الأبرار ، وإنى أخشى أن يكون فى الأمر دسيسة قذرة . ومن يدرينى أنه يشكو الآن مما أشكو ، ويبكى كما أبكى ؟

– أخشى أن تكونى صادقة ، ولكنه لا يشكو لبعدك ، ولا يبكى

لفراقك . فظهر الذعر فى وجه نجلاء وصاحت :

ـ ما هذه الألغاز يا أخت إبليس ؟ أتكتمين شيئاً عنى ؟

ـ إن أخى إبليس أوحى إلىّ ألا أثق بالرجال . وعلمنى فى شبابى أن ألعب بهم . وألا أدع واحداً منهم يلعب بى .

ـ أفصحى بالله عليك يا سلمى !

ـ إن الإشارة تغنى عن الكلام ، ومن العبث أن يقذف المرء بالحجارة زجاجاً محطّماً .

ـ قولى يا سلمى فإن صاحبة الزجاج المحطم تريد أن تعرف مكان الخطر .

ـ كانوا يهمسون باسم صوفيا ، ثم تحققتُ صدق ظنونهم .

ـ صوفيا ؟ صديقتى صوفيا بنت لوسيان ؟ لا لا يا سلمى . قولى كلاماً آخر ، إنه إن سقط من عرش كرامته ، فإن مثلها لن يُقدم على حب يستحيل أن ينتهى بشرف الزواج . إنها على شممها وعلوّ نفسها لا تنسى أنها بنت أسير رومىّ ، وأنها لن تستطيع أن تتصل بملوك العرب .

ـ إنه يذهب إلى دارها كل مساء ، وقد بدأ الأمر بأنه يريد أن يتعلم اللغة الرومية .

ـ أنت كاذبة . إن حبيبى لن ينحدر إلى هذه الوهدة .

ـ وماذا تقولين فى رسائل أرسلها إليها واستطاع خادمها أن يسرقها لى من خزانتها ؟

ـ أين الرسائل ؟ وهنا مدّت العجوز يدها إلى جيبها ، وأخرجت الرسائل التى سلمها إليها سهم ، فاختطفتها نجلاء فى غضب يشبه الجنون ، وقرأت فإذا استعطاف وشكوى وحنين ، وإذا الخط خط حبيبها ، وإذا كلمة « يا صوفيا » كتبت فى صدر كل رسالة ، وكانت قد زوّرت تزويراً متقناً لم تدركه . وهنا أخذت تئن كما يئن الجريح أقْصَدَتْه(١) السهام ، حتى إذا قضت إرْبَها من البكاء رفعت رأسها فى شمم وكبرياء وقالت : إن أحداً لن يعبث بقلبى ولو كان أبا فراس. وسيرى الناس جميعاً أن بنت الخالدىّ ستستمد من الهزيمة قوة الانتصار، قومى يا سلمى فلن ترينى باكية بعد اليوم .

أما أبو فراس فكثرت وساوسه ، واختلط عليه الأمر ، ولزم داره ، وبينما هو يناجى شجونه الضائعة ، ويسخط على الدنيا وما فيها من خداع ورياء وخَتْل ، إذا رسول سيف الدولة يدخل وبيده رساله من سيده يخبره فيها باقتراب الروم من مَرْعش ، ويهوّل له فى الأمر ، وينبئه بأن الفرصة الآن سانحة للإغارة على حصن بَرْزويه واستنقاذه من أيديهم . فما كاد يتم قراءة الرسالة حتى امتطى جواده وانطلق إلى قصر الحلْبة وهو يسابق الريح ، وقد شعر فى نفسه بشىء من السرور لهذه الدعوة إلى القتال الذى قد ينسيه لواعج الحب ، أو يريحه منها إلى الأبد .

---

(١) أقصده : طعنه فلم يخطئه .

٧

وصل أبو فراس إلى ميدان القصر فى اليوم الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، فرأى زحاماً تكاد تلتصق فيه الأجسام ، وقد اضطربت آذان الأفق بصهيل الخيل وعجيج الرجال ، ورأى جيشاً لهاماً لا يبلغ الطرف مدّى حدّه ، كأنه البحر المائج ، وقد لمعت سيوفه ، وأشرعت رماحه ، واشتاقت فيه النفوس إلى لقاء الموت ، ولمح من بعيد سيف الدولة فوق جواده الأشهب ، وقد ابتسمت أساريره ، وملأه الزهو برجاله وعتاده ، فانطلق نحوه حتى إذا بلغه نزل عن فرسه وحيّاه تحية الملوك وقال : «إنا معك يا ابن العم إلى آخر الأرض ، وقد عبّأنا لك النصر فى أغماد سيوفنا ، وبذلنا أرواحنا فى سبيل عزّتك وعزّة الإسلام ، ولن نرجع حتى نعلّم الدُّمُستق كيف يكون القتال ، وحتى نأبى أن نتعلم منه كيف يكون الفرار . سِرْ يا بن العم فإن جيشك غيل [1] متحرك به أسود طال بها الطوى ، وحرّقها الظمأ إلى دماء الأعداء » .

وهنا صاح الفرسان فى حماسة : حيّا الله أبا فراس! إن جيشاً يقوده سيف الدولة ويصول فيه أبو فراس لن يُغْلب أبداً . وبعد قليل انطلق

---

(١) الغيل : الأجمة والشجر الكثير الملتف وموضع الأسد .

الجيش كأنه الطوْد الشامخ يتعثر بالآكام ، حتى إذا بلغ حصن برزويه وثب أبو فراس فى طليعة الفرسان وسيفه فى يده كأنه الشعلة المتوقّدة ، واحتدمت الحرب ، وحمىَ وطيسها[١] ، وتنادى الشجعان ، واختلطت الأصوات ، وعلا الصهيل والصليل ، وطال الصراع ساعات ، حتى إذا بلغت القلوب الحناجر ، صاح الصائحون : إلى الجنة ! إلى الجنة أيها الشهداء ! لقد فُتِّحت اليوم أبوابها ، إن الحور العين ينظرن إليكم من خلال السحب ، فأروهن أنكم أشوق منهن إلى اللقاء . النصرَ ، النصرَ ! لن يخفق للروم علَم بعد اليوم !

وأخذ أبو فراس سَمْته[٢] نحو الحصن وخلْفه ضراغم العرب ، وتكاثر عليه الروم فكان يُطيح رءوسهم كما يحصِدُ الزارع سنابل القمح ، وما زال يصعد والفرسان خلفه ، حتى وصل بفرسه إلى قمة الحصن ، فخلع رايته وقذف بها فى التراب ، ثم صاح : الله أكبر ! الله أكبر ! فردّد الجيش صيحته ، وتواثب المسلمون على الحصن حتى أجلَوْا الروم عنه ، فانطلقوا خلف قائدهم فى سرعة الريح يلتمسون الفرار ، وعاد سيف الدولة إلى أنطاكية ، ووراء جيشه جيش ثان من الأسرى والغنائم .

وما كاد سيف الدولة يستقرّ فى ضيافة قريبه أبى العشائر والى أنطاكية ،

---

(١) الوطيس : التنور ، وحمى وطيس الحرب : اشتدت وتأججت نيرانها .
(٢) السمت : الطريق .

حتى تقدّم إليه الوالى وهو يأخذ بذراع رجل فى هيئة الفارس ، تجاوز الثلاثين ، طويل القامة ، خفيف الجسم ، رقيق الشفتين ، أصْيد[١] العنق ، فى ملامحه كبرياء الواثق بنفسه ، المعتدّ بها ، وفى صدره المرتفع ما يدل على ما يجيش به من آمال جسام ، تقدم أبو العشائر إلى سيف الدولة وهو يقول : هذا يا مولاى أحمد بن الحسين المتنبى الشاعر . وهو نادرة الفَلَك ، وفخر عُطارد، يريد أن يُشيد بمحامد مولاى ،وأن يسجّل غزواته فى جبين الدهور بشعره الخالد ، فاشمأزّ أبو فراس قليلا لطول المديح وكثرة الإطراء ، وعَجِب أن يُوصَف أمامه شاعر هذا الوصف ، وزاد عَجَبُه حينما رأى سيف الدولة يحتفى به ويجلسه إلى جانبه ، وحينئذ علم أن زامر الحىّ لا يُطْرِب ، وأن النبىّ لا يُكرم بين قومه . ووقف المتنبى وأنشد قصيدة ميمية وصف فيها انتصار سيف الدولة واستيلاءه على حصن برزويه ، منها :

لقد ملّ ضوءُ الصبح مما تُغيرُه ... وملّ سوادُ الليل مما تُزَاحمه[٢]
وملّ القنا مما يدُقّ صدوره ... وملّ حديد الهند مما تُلاطِمه[٣]
لقد سلّ سيفَ الدولة المجدُ مُعْلماً ... فلا المجد مخفيه، ولا الضرب ثالمه[٤]

---

(١) أصيد العنق : مائل العنق من الزهو والكبر .
(٢) مما تغيره : مما تغير فيه .
(٣) القنا : الرماح . وحديد الهند : السيوف الهندية .
(٤) أعلمه : أظهره وميزه . وثلمه : فله وكسر مضاربه .

على عاتق المَلك الأغرّ نجادُه وفى يد جبّار السموات قائمة[1]
تحاربه الأعداءُ وهى عبيده وتدّخر الأموال وهى غنائمه
ويستكبرون الدهرَ والدهرُ دونه ويستعظمون الموتَ والموتُ خادمه

وكان سيف الدولة يتمايل من الطرب ، وأعجَبَ بعضُ الشعر أبا فراس ورأى فيه تجديداً ، ولكنه لم يكن يحب من الشاعر ذلك الزهو الذى لا يطاق وبخاصّة حينما قال :

عجبتُ له لما رأيتُ صفاتِه بلاواصف ،والشعرُتَهْذِى طماطمه[2]

عند ذلك علم أبو فراس أن حرباً أدبية بجانب حرب الروم ستنشب نيرانها بحلب ، وأن شعراء الشام وهم خير شعراء العرب لن يلقوا أقلامهم أمام هذا الشاعر المتحدّى ، وأنه وقد أعدّه الله ليثلّ عرش الروم بسيفه لن يصعب عليه أن ينزل هذا المغرور إلى حيث يجب أن يكون . ثم سار أبو العشائر بالمتنبي حتى بلغ أبا فراس وقال : هذا ابن عمى أبو فراس فارس بنى حمدان وشاعرهم .

— سمعت يا سيدى شعره من قبل فأكبرت فنه وأدبه . ما أحسن الملك

---

(١) العاتق : ما بين المنكب والعنق . ونجاد السيف : حمائله . وقائم السيف : مقبضه .

(٢) هذى (كرمى) : تكلم بغير معقول . والطماطم : جمع طمطم ، وهو الذى لا يفصح ولا يبين .

والأدب يجتمعان ؛ ودِدْت لو بعتُ نصف شعرى بولاية فى أقصى الأرض . فقال أبو فراس :

– الشاعر له فى دنيا شعره ما هو خير من الولايات والمناصب لو استطاع أن يرفع شعره عن شهوات النفوس . لقد أحسنت أبا الطيب فى قصيدتك بعض الإحسان لولا أنك أثرتَ عليك حفيظة الشعراء . مالك ولهم يا صاحبي ؟ إن نوال ابن عمى بحر فياض لا ينقص منه تزاحم الواردين.

– إنها الصنعة يا سيدى ، وإن للمدح أساليب هذا أحدها ، وأنتم لمكانتكم من الملك لا تحاولون هذه المذاهب .

– صدقت . وشعراؤنا – وليس لهم ظل من ملك – لا يحاولونها أيضاً . انظر ، إن ابن عمى يدعوك لتذهب إليه .

وأقام سيف الدولة بأنطاكيا أياماً ، ثم ارتحل إلى حلب ، وكان أبو فراس يظن أن الحرب وأهوالها تنسيه حبه لنجلاء، فإذا خيالها يعرض له فى كل مُعترَك، وإذا صورتها تبرُز له حزينة باكية بين مُشْتَجر الرماح . جرّب السلوّ بالوَحدة فزادتْ فى أشجانه . وبالامتزاج بالناس فكانت كل كلمة منهم تذكره بها ، وتُشعل فؤاده شوقاً إليها . وجرّبه بالراح فطفا وجهها الفاتن فوق كل كأس ، وظهر لؤلؤ ثغرها فى كل حبب[1] . وجرّبه بالشعر فكانت كل قافية تشير إليها ، وكان كل

---

(١) حبب الشراب : نفاخاته وفقاقيعه التى تعلوه .

بيت يفتح أبوابه لينبعث منه نور جبينها الوضاح . ثم جرّبه بالنوم فكانت أطيافها تنتابه[١] فى أشكال وصور تثير كامن الآلام ، وتنكأ[٢] هادئ الجروح .

وصل أبو فراس إلى حلب وقضى ليلة بين همّ ويأس ، حتى إذا بدا حاجب الشمس قام من فراشه مضنًى متعباً حزيناً ، وطفق يحدّث نفسه هامساً : إنها وشاية . إنها نميمة كاشح[٣] . إن نجلاء أنبل وأكرم عِرْقاً من أن تهجُرنى من غير ذنب. إن صداقتى لها أوغرتْ علىّ صدوراً مُلئت باللؤم ، وطباعاً خبيثة تعرف كيف تحسن الكيد : فمرة تجتمع شرذمة من شذّاذ العرب لقتلى عند خروجى من دارها ، ومرة يدخلون عليها بهذه الدسيسة الماكرة التى فرقت بينى وبينها . أين السبيل ؟ وكيف أصل إليها بعد أن ظهر أن كل الناس يأتمرون بى ؟ صوفيا ؟ إنى سمعتها تذكر نجلاء ، وتثنى على نجلاء . أتستطيع أن تعمل لى شيئاً ؟ ولم لا ؟ إنها فتاة كريمة الخلق ، رقيقة العاطفة . ولم لا أجرّب؟ يا أسامة أعدّ جوادى .

وركب أبو فراس حتى وصل إلى مصنع لوسيان فلاقته صوفيا فى طلاقة وبشر ، وأكثرت من الترحيب به ، ثم قالت تداعبه :

---

(١) تنتابه : تزوره مرة بعد أخرى .
(٢) نكأ الجرح : قشره وأدماه .
(٣) كاشح : عدو مبغض .

ـــ أظنك نسيت جميع دروسى .

ـــ لقد شغلنى عنها درس لا أستطيع فهمه .

ـــ لن يصعب شىء على ذهنك الوقاد .

ـــ ربما استطعت أن أفهم كل شىء ، ولكنى أقرّ لك صادقاً أننى عجزت عن فهم النساء . فضحكت صوفيا ، وقالت :

ـــ ويحى على فارس الطعان ، ومبيد الأقران ، وفاتح العواصم والثغور ، كيف يعجِز عن فهم امرأة ؟

ـــ نعم يا صوفيا . إن أمرى عجب ، فهل لديك من معونة ؟

وقص عليها أبو فراس أمره من بُداءته إلى نهايته ، حتى إذا أتمّ قصته قامت وشرعت تلتفّ بلِفاعها ، وهى تقول : سأكون رسولك إليها الساعة . انتظرنى هنا . ثم انفلتت كأنها هبّة النسيم ، وبقى أبو فراس بين أمل يائس ، ويأس آمل .

بلغت صوفيا دار نجلاء ، فدخلتْ حتى وصلتْ إلى البهو الكبير ورأتها سلمى العجوز فجنّ جنونُها . ورأت أن جريمتها أوشكتْ أن تنكشف ، فأخذت تبحث فى زوايا رأسها الأشيب عن حيلة تدرأ عنها الخطر . فحيّت صوفيا فى شوق وترحيب ، ثم قالت : أخشى يا بنيتى ألا تستطيع سيدتى نجلاء لقاءك اليوم ، لأنها تؤثر أن تبقى فى سريرها .

فأدركت صوفيا أن العجوز – على الرغم من ريائها الظاهر – لم ترتح للقائها ، ورأت أنها تكثر من الابتسام ومن بلع ريقها ، وتحاول خفض صوتها ، فعلمت أن وراء الأمر سرًّا ، وأن هذا السر قد تكون له صلة بما جاءت من أجله ، فرفعتْ صوتها وقالت :

– ما أجمل هذا البهو يا سلمى ! وما أعظم هذه الأعمدة ! ثم رفعت طبقة صوتها وهى تقول : وهذه النقوش ! هذه النقوش ! ما أبدعها وما أروع ألوانها ! فذُعِرت العجوز وقالت : خفِّضى من صوتك يا بنيتى . فزادت الشبهة فى نفس صوفيا ، وأخذت تصيح كالمجنونة : انظرى ، انظرى يا أمى إلى السقف ! انظرى ! انظرى ! بالله عليك انظرى ! هذه صورة نَسْر جارح تَفِرُّ أمامه الطيور فى ذُعر وَوَهل[1] . وهذه صورة نَمِر يطارد غزالاً . مسكين مسكين هذا الغزال !

وبينما هى فى صياحها إذ فتح باب البهو وبرَزَت منه نجلاء . فلما رأت صوفيا بُهِتَتْ وبدا الغضب فى عينيها ، ووقفتْ فى مكانها لا تريم[2] ، وعادت إليها ذكريات صديقها ، وأثار آلامها أنّ غاصبة هذا الصديق تزور بيتها ، وتقف أمامها باسمة كأنها لم تَهْدِم حياتها ، ولم تضرِّج يديها بدماء قلبها . فقرُبت منها وقالت وصدرها يرتفع وينخفض كأنه كير حدّاد :

---

(١) الوهل : الفزع والخوف الشديد .

(٢) لا تريم : لا تتحول ، ولا تفارق مكانها .

ـ ما كنت أظن أن أراك فى منزلى بعد أن أغلقتِ بيديك بابه دونك .

ـ أنا أغلقت بابه دونى يا نجلاء ؟ ولمه ؟

ـ هذا سرّى وسرّك .

ـ وقد يكون سرّ سلمى فقد هالتها زيارتى فى هذا الصباح .

ـ إن لها كثيراً من العذر .

ـ ماذا أسمع يا رب؟ لقد جئت شفيعة فأصبحت فى حاجة إلى شفيع .

ـ جئت شفيعة ؟

ـ نعم .

ـ لمن ؟

ـ لصديق عزيز . فتهانفت[1] نجلاء وقالت :

ـ تتشفعين لصديق عزيز لتسلُبيه مرة أخرى!

ـ ما هذا يا إلهى ؟ حبيبتى نجلاء ! ماذا بك ؟

ـ أنت بى ، وأنت دائى ، وأنت بلائى .

ـ نجلاء ؟ أين ذُهِبَ بعقلك ؟ بالله عليك قولى ماذا جنيت ؟

ـ خبّرينى أولا لمن تتشفعين ؟

---

(١) تهانفت : ضحكت باستهزاء ، أو تعجبت . . .

– لمولاى أبى فراس . فوثبت نجلاء وقالت فى دهشة المحموم :

– لأبى فراس ؟ ! !

– نعم لأبى فراس . ماذا فعل أبو فراس حتّى هجرته وكدرت عليه صفو حياته ، وهو أطهر الشباب قلباً وأكرمهم نفساً ، وأعلاهم نسباً ؟ ماذا جنى حتّى بدّلت بنهاره ظلاماً ، وبريحان حياته شوكاً وقتاداً ؟

– ألا تغارين عليه يا صوفيا ؟ فحملقت صوفيا وقالت :

– أغار عليه ؟ إنه حبيب إلى كل قلب ، ولكنه لا يبعثر حبه على الحسان . إننى أحبه كما أحب القمر الزاهى فى ليالى الربيع ، دون أن تحدثنى نفسى بالصعود إليه . إن من الخبل أن تتعلق رومية بعروش الملوك .

– إذاً ما هذه الرسائل التى كان يبعث بها إليك ؟ فقهقهت صوفيا وقالت : مسكينة يا نجلاء ! لقد وقعت فى دسيسة أشرار أشقياء . أين هذه الرسائل ؟ فقامت نجلاء وأخرجت الرسائل من خزانتها . فلما نظرت إليها صوفيا وكانت نافذة الذكاء ، صاحت : انظرى ، إنها مزوّرة ، إنها بخطه إلا تلك الكلمة التى صُدِّرت بها كل رسالة . تأملى يا حبيبتى فى كلمة « يا صوفيا » أهى من نوع خطه ؟ فنظرت نجلاء طويلاً ، ثم رفعتْ رأسها كما يرفع الغريق رأسه من اللجّة وصاحت : لا يا صوفيا . إنها ليست خطه . إنها مزوّرة . لقد كنا فريسة مكيدة خبيثة . ثم قذفت بنفسها على صوفيا تعانقها وتقبلها فى شبه جنون ، وهى تغمغم : ويل لى

من غباوتى ! لقد كدت أضيعّ صديقى ، وأفقد حياتى وسعادتى . مسكين أيها الصديق ! ماذا ظننتَ بى ؟ وبم حكمت علىّ ؟ ثم التفتت فلم تجد العجوز فصاحت : أدركوا العجوز ! أدركوا العجوز! فهُرِع الخدم وأسرعوا للبحث عنها فى كل مكان من الدار ، فلم يعثروا لها على أثر . فاتجهتْ إلى صوفيا وقالت : هذه العجوز هى رأس الشر ، وأم الكبائر . أين أبو فراس الآن ؟ اذهبى يا حبيبتى إليه وقصّى عليه ما رأيت وسمعت ، وتلطفى به ، واطلبى إليه أن يقابلنى بعد ساعة بقصر أخته أسماء، لنحل معاً هذا اللغز المعقّد .

وعادت صوفيا إلى أبى فراس فرأته يذرع الغرفة جيئة وذُهوباً فى قلق ووُجوم ، فلما وقعت عليها عينه صاح : ما وراءك ؟ فلم تجبه وقالت : اجلس هنا يا فارسى ،وبالله عليك لا تُحَمْلق عينيك هكذا فإنك تخيفنى . اهدأ يا سيدى اهدأ ، فإن حديثى سيطول ، ثم ما هذا العُبوس ؟ وما ذلك الحزن الذى كاد يعصِف بك ؟ وفى تلك اللحظة أخذ كلبها يتواثب حولها فمالت إليه تداعبه وتدلله ، وتحمله بين ذراعيها ، وتخاطبه بعبارات ملؤها الحب والحنان ، فضاق أبو فراس ذرعاً واشتدتْ وساوسه ، وقال :

ــ قوليها كلمةً واحدة يا صوفيا ، ففى اليأس راحة المحبين. فأغرقت فى الضحك وقالت :

ــ أيّ يأس يا صديقى ؟ إنها مكيدة محبوكة الأطراف نسجتها يد العجوز سلمى مع أيد أخرى ، أترك لك ولنجلاء البحث عنها .

ــ مكيدة ؟ ونجلاء لا تزال على صداقتى ؟

ــ نعم . ثم أخذت تقصّ عليه القصة فى تفصيل وإسهاب ، وهو مطرق واجم ، يتأوّه حيناً ، ويثب من الغضب أحياناً ، فلما نفضتْ إليه كل ما عندها قال : خادمى سهم خائن ، والعجوز خائنة . وأنت مسكينة مظلومة . ويل لسهم ! ويل لسهم ! ولكن هناك أيدياً أثيمة أخرى هى التى كانت تدفع هذين الخائنين . الحمد لله والشكر لك يا صوفيا ، ما أعْجَبَ تصاريف القدر ! إنهم لو لم يدخلوك فى هذه الدسيسة ما استطعنا لها كشفاً ! أنا اليوم أسعد خلق الله . اليوم عاد إلىّ شبابى ، وانبعثتْ آمالى . ثم أخذ يقبل صوفيا فى جبينها ، ودموعه تغسل مكان كل قُبلة ، وهو يقول : أتقولين إنها ستقابلنى بعد ساعة عند أختى ؟ وما كادت تجيب حتى وثب إلى جواده والشوق يكاد يطير به ، فما رأى الناس أشد مرحاً من فرس وفارس !

وصل إلى قصر أسماء فعانقها طويلاً وقبّلها طويلاً ، لأن شوقه الثائر الزخّار كان يتطلب منفذاً ، ولو أنه رأى فى السُّلّم عبدها جوهراً لأغرقه عناقاً وتقبيلاً ، وجاذبته أخته كثيراً من الأحاديث ، وسمعتْ رملة بقدومه ، فأسرعتْ نحوه فى شغف سافر فردّ تحيتها فى أدب هادئ رزين ، وبينما

هى تحادثه إذا جوهر يعلن قدوم نجلاء . فالتفتت أسماء إلى أخيها وقالت : إن نجلاء فتاة أديبة لا تحتجب عن الرجال ، وأظنك حضرت مجالسها التى تجمع رجال الشعر والأدب . أتعرفها ؟ فقال : نعم . وهنا أمرت جوهراً أن يدعوها إلى المجلس . فدخلت نجلاء فعانقت أسماء ورملة وألقت ابتسامة خفيفة نحو أبى فراس ، ومدّت إليه يدها فى إجلال وقالت :

— سمعت قصيدتك يا سيدى فى موقعة حصن برزويه ، وسمعت قصيدة الشاعر الجديد الذى يدعونه بالمتنبى ، وعجبت أشدّ العجب أن يحتاج مولاى سيف الدولة إلى شاعر جديد ، وفى الدولة مثلك ومثل النامى والناشئ وكُشاجم وغيرهم من الشعراء المجيدين.

— إن كل شاعر فى المملكة يا سيدتى سيف للمملكة ودِرْع لها . وما أحوج الممالك الناشئة إلى كثرة السيوف والدروع ، فقالت نجلاء إن قصيدة المتنبى كلها عيوب ، فمطلع القصيدة طلسم مُغاق لا يفهم ، وأبياتها مفكّكة الأواصر ليس فيها شىء من إشراق الديباجة أو الفلسفة البارعة . وحينما همّ أبو فراس بإجابتها وكانت أخته قد عرفت من منظره وحركاته ما تنطوى عليه نفسه صاحت : إننى لا أحب الجدال فى الشعر والأدب ، فهلا ذهبتما إلى الحديقة فإنها أوسع من أن تضيق بالحديث فى الشعر وفنونه . قومى يا نجلاء . فذهبا إلى الحديقة وأخذا يتحدثان فى المكيدة وما لقيا من جرّائها ، ثم سأل أبو فراس :

– من الذى حاك خيوط هذه المكيدة يا نجلاء ؟

– قرعويه .

– هذا عجيب !

– ليس بعجيب يا سيدى ، فإنه يريد أن يفرق بيننا بكل ما يستطيع من وسائل . وأذكر أن العجوز سلمى فى أثناء احتجابك عنى كانت تكثر دائما من الغضّ منك ، ومن الثناء عليه ، وتُلِحّ علىّ فى وصل حبال صداقتى به ، ثم إنى أعتقد جازمة أن العصابة التى حاولت قتلك ليلة خروجك من دارى لم تكن إلا بتدبيره وإيعازه .

– اللئيم الفاجر ! سأذبحه بسكين جزّار ، لأنه أحقر من أن يقتل بسيف .

– لا يا سيدى . إن حب سيف الدولة لهذا الخبيث فوق كل حب ، وهو لا يتوانى عن محْق كل من يعرض له بسوء ولو كان ابن عمه . فدعْنا بالله نعش فى سعادة ونعيم . ودعنا نسخر من مكايد أعدائنا بعد أن نتحصّن بالحذر منهم . لا بد أن تحضر الليلة للعشاء فإنى سأدعو بعض الأدباء ورجال القصر وبينهم قرعويه ، لأمتع نفسى بتعذيبه والتشفى منه . وقد أرسلتُ إلى نشوة المغنية وإلى الراقصة « صبح » لتكون ليلتنا ليلة سرور وبهجة ، ننسى بها ما مرّ بنا من ليال سود ، وأيام نحسات .

وبينما كانا فى الحديقة كانت رملة تطل عليهما من ثقوب نافذة مقفلة ، فلما رأتهما عادت إلى غرفة نومها متعثرة فى كل خطوة ، ثم ألقت بنفسها على سريرها ، وهى تئن أنين اللبؤة المكلومة . وجاءت خادمها الأمينة « مارينا » فسألتها فى ذعر عن سبب بكائها فلم تجبها ، وتكرر السؤال ، وزاد الإصرار على الكتمان ، حتى إذا هدأت نفسها قليلا قالت : دعينى يا مارينا دعينى . فإننى أحترق كما تحترق الشمعة دون أن يرثى أحد لحالى . إننى لست أخت ملك . إننى أبأس فتاة فى حلب . ولكن الخادم أخذت تسكِّن من ثورتها . وتلحّ عليها فى أن تكشف لها خبيئة أمرها ، وبعد لأى مالت رملة إلى أذنها وهمست بكلمات يقطّعها النشيج [١] والزفير ، وحينما أتمَّت حديثها هزّت مارينا رأسها وقالت : إن الأمر جِدّ خطير ، ولكن دعينى يا سيدتى أدبّر ، وأرجو أن تزول من طريقك العقبات ، وأن يتمّ الأمر كما تحبين .



---

(١) نشج الباكى نشيجاً : غص بالبكاء من غير انتحاب .

٨

خرجت سلمى العجوز هائمة حيرى تعَض بنانها غيظاً وحَنَقاً، ولم يكن غضبها لأن صلتها انقطعت بقوم عاشت فى كَنَفهم عيشة الرَّغد والنعيم ، ولا لأن أواصر رحمة وحنان تشبه أواصر الأمومة كانت بينها وبين نجلاء قد تفككت ، ولكنها غضبت واشتدّ غضبها لأنها لم تُحكم المكيدة، ولم تأخذ حَيْطتها لكل طارئ . وحزِنت للفنّ أكثر من حزنها على نفسها ، وخشيتْ أن يكون لعلوّ السن يد فى اضطراب تفكيرها ، وأنها كلما تقدمتْ بها السنون فقدتْ هذه المواهب الغالية شيئاً فشيئاً ، حتّى تصل إلى الخرَف [1]، ورأت رجليها تسوقانها إلى بيت قرعويه ، فلما مَثَلت أمامه — وكان فهد واقفاً إلى جانبه — عرف بذكائه أن فى الأمر شيئاً فقال :

— أهلا بسلمى . هل طار العصفور من القفص ؟

— طار يا سيدى لأن القفص كانت به فجوة تسع النسر . والذنب ذنب صانع القفص . وقد جاء إليك اليوم حزيناً معتذراً .

— هوّنى عليك يا سلمى فمثلك من يستطيع صنع قفص جديد لا

(١) الخرف : فساد العقل من الكبر ، وبابه طرب .

تنفذ منه الذبابة . والخيبة أول مراتب الفوز . ماذا حصل ؟

فقصّت عليه العجوز فى خجل واستخذاء جملة الأمر ، فلما انتهت من الكلام رفع رأسه فى عبوس وصلابة ، والتفت إلى فهد وقال : ما كان ينبغى لنا أن ندخل صوفيا فى الأمر ، فإنها فجوة القفص الواسعة التى فرّ منها العصفور ، ولكن . . . لا بأس عليك يا سلمى ، أقيمى بدارنا فإننا دائماً إليك فى حاجة . وفى هذه اللحظة دخل خادم ومعه بطاقة فناولها لقرعويه فقرأها عابساً مرة وباسماً أخرى ، وقال : هذه رُقعة من محمد الخالدى يدعونى للعشاء عنده الليلة ، ولعله يحتفل لعودة الصفاء بين الصديقين ! ثم التفت إلى فهد وقال : قل لحامل الرسالة إننى سأجيب الدعوة .

وكانت ليلة مشرقة حقـًا ، ضاحكة حقـًا . نُبِذَت فيها الكلفة ، وأرسلت النفوس على سجيتها ، وأعد فيها كل ما يُبهج ويَسرّ ، وكانت نجلاء فى رَوْعة جمالها ، وحسن زينتها ولطف حديثها ، شرَك القلوب ، وملتقى العيون . أما أبو فراس فقد استخفّه الطرب ، فطار مع اللذات حيث طارت ، وقذف بثوب الوقار من النافذة ، وكانت نجلاء تكثر من تحية قرعويه ، ومن الإقبال عليه كأنه لم يكن منه ما كان ، وكأنْ لم يُخشَ منه مايكون . والنساء النساء لا يَلَذّ لهن تسميم أعدائهن إلا فى كوب عسل ! وقامت صبح فأتقنت الرقص ، وأجادت الحركات ،

وكانت دقات صنوجها فنًّا من الفن ، وطرَباً من الطرب . وغنَّت نشوة من قول أبي فراس :

ولما ثار سيفُ الدين ثُرْنا كما هيَّجت آساداً غضابا
أسنَّتُه إذا لاقى طعانا صوارمُه إذا لاقى ضِرابا
دعانا والأسنة مُشْرَعاتٌ فكنا عند دعوته الجوابا
وكنا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا

ثم غنت من قوله

ألزمنى ذنباً بلا ذنب ولجّ فى الهِجْران والعَتْب
أحاول الصبر على هجره والصبرُ محظور على الصَبّ
وأكتم الوَجْد وقد أصبحتْ عيناى عينيه على قلبى
وكنتُ ذا صبر وذا سلوة فاستُشْهِدا فى طاعة الحبّ

فاهتزّ القوم من الطرب وعلتْ صيحاتهم ، وما فجعهم إلا شعاع من الشمس يسطع على الحيطان ، فقاموا ، ودعت نجلاء أبا فراس فهمس فى أذنها : متى تصلنى منك رسالة يا نجلاء فضحكت وقالت : لقد أذعتُ سرّ خطبتنا فليس علينا بعد اليوم من حَرَج ؛ فاحضر متى شئت وكيف شئت .

وفى صبيحة يوم دخلت مارينا غرفة نوم رملة ورفعت الستور فرأتها

فى سريرها عابسة ، وقد دلت أساريرُها أنها لم تنم ليلتها ، فقالت لها مارينا :

— لقد عرفتُ كل شيء من سهم .

— ومَن سهم هذا ؟

— خادم القصر الذى وهبه سيدى سيف الدولة لأبى فراس .

— وما شأنه ؟

— لقد فرّ المسكين من سيده بعد أن انكشفت الدسيسة التى اشترك فيها هو وسلمى العجوز وفهد خادم قرعويه ، وكان الغرض من هذه الدسيسة التفريق بين أبى فراس ونجلاء ، فإنه قد جنّ بحبها جنوناً . فتنهدت رملة وقالت :

— علمت ذلك حينما أطللت عليهما من نافذة القصر .

— لقد لبثت طول الليل أفكر فى وسيلة لإبعاد نجلاء عنه وتيئيسه من الحصول عليها . ثم فى اجتذابه إلى القصر ، والاستعانة بنفوذ مولاى سيف الدولة من حيث لا يشعر ، حتى يأتى خاضعاً يستجدى رضاك .

— وهل اهتديت إلى شيء ؟

— أظن . أتعرفين غالباً التميمىّ ؟

— هو من كبار الجنود فى جيش أخى . فضحكت مارينا وقالت :

— وهو حبيبي المفتون بى ، والذى إذا أمرته أن يتسلق إلى الشمس

فكر فى طريقة للوصول إليها .

— وماذا تريدين منه أن يفعل ؟

— آه . هنا يقف السرّ فلا يتقدم خطوة واحدة ، فثق بى يا سيدتى ولا تتعبى رأسك بالدسائس ، فإنها شائكة معقدّة .

وبعد أيام زارها غالب فى هدْأة من الليل ، فانفردت به فى حجرة بحديقة القصر ، وطال بينهما الحديث والجدل ، وخرج غالب بعد ساعتين وجبينه يتصبب عرقاً ، وهو يهمس فى أذنها : إنها مسألة شديدة الخطر يا حبيبتى ، وأخشى أن يُقضى علينا جميعاً إذا كشف أمرها .

— كن رجلا ، واعلم أن حبى وزواجى بك فى كَفَّة ، وقضاء هذا الأمر على ما أريد فى كفة ، فاختر أية الكفتين شئت .

— اخترت الكفة التى فيها حبك ، ولو سقطت بى إلى الجحيم ، وسأعمل بكل ما أمرت ودبّرتِ .

وبعد هذه الليلة بسبعة أيام أو ثمانية ، ركب أبو فراس للقاء نجلاء فى دارها فرأى الدار فى اضطراب مائج ، وأقبل عليه محمد الخالدىّ باكياً ، يضرب بكف على كف ، ويقول : فقدنا نجلاء ! فقدنا نجلاء ! لقد ماتت ! لقد ماتت ! ولكن أين جثتها ؟ لقد بحثنا فى كل ركن ، وفى كل درب ، وفى كل زقاق من المدينة وأرباضها ، فلم نجد لها أثراً . خرجت هذا الصباح لزيارة إحدى صويحباتها فلم تصل إلى دارها ، وكأنما

غاصت بها الأرض ، أو تخطّفتها السماء . فذهل أبو فراس وكأن عاصفة جرفت به الأرض ، فلوَى عنان فرسه كالذاهل المجنون ، ينظر فى وجه كل شخص ويبحث فى كل زاوية ، ويمر على كل بيت يظن أنها طرقته ، حتى إذا يئس فى أخريات الليل ذهب إلى داره شبحاً محطماً ، لم يبق فيه من الحياة إلا زفرات وأنّات ودموع .

ومرت الأيام تتلو الأيام ولا يُعْلم انجلاء مكان ، واهتم سيف الدولة ورجال دولته بالبحث عنها فلم يفلحوا ، وكاد مرور الزمن ، وتراكم اليأس على اليأس يمحو ذكراها من نفوس الناس إلا من نفس واحدة حزينة : هى نفس أبى فراس . واتهم قرعويه أبا فراس بأنه اختطف نجلاء ، واتهمه أبو فراس بأنه اختطفها ، ولكن التهم لم تتجاوز شبهات لا تقف على رِجْلَين . فذهب إليه أبو فراس مرة بعد أن طغت عليه وساوسه ، فلما تقابلا جعل كل منهما ينظر إلى صاحبه نظرة الثعلب إلى الثعلب وقال أبو فراس :

– وهكذا يا صاحبى عجز رجالك عن معرفة مكان نجلاء !

– يظهر أن من دبرّ اختطافها كان فى ذكائك وحصافتك فلم يترك وراءه أثراً يدلّ عليه .

– لابد أن تكون له سابقة فى الدسائس . ودُرْبة فى نَصْب الحبائل .

– على أننى لا أستبعد مطلقاً أن تكون فى حاب ، وأن تكون فى دار رجل عظيم مثلك .

– وقد يكون مختطفها رجلا غيوراً ، فاختطفها ليروضها على حبه ، ويُكرهها عليه إكراهاً .

– إنى لا أجد من يستطع ردّها سواك يا سيدى أبا فراس إن كانت لا تزال بين الأحياء .

– وعليك أن تبحث أنت أيضاً فربما لاتكون بعيدة عنك . سأتركك الآن يا صاحبى وأرجو أن يهديك الله إلى مكانها .

أما رملة فاستبشرت باختفاء نجلاء ، ولوّحت إلى أسماء من بعيد بأمنيتها ، وعملت أسماء على استهواء أخيها بالثناء على رملة والإشادة بما يحيط بها من ملك وجاه عريض ، ولكن أبا فراس كان عزوفاً يسمع ويغضى ، ويساق فيأبى المسير . ولكن ماذا جرى لنجلاء حقًّا ؟

خرجت فى الصباح لزيارة صديقة ، فتقدم إليها بالقرب من دارها ثلاثة رجال فى زىّ الحمالين ، ومعهم محفّة[1] ، فتقدم منها أحدهم فى أدب وإجلال قائلا : أتأمر سيدتى أن نحملها فى محفتنا إلى ما تريد ، فإننا لم نشتغل بدرهم طول نهار أمس ؟ فعطفت نجلاء عليهم ، وركبت المحفة ، وأخبرتهم بمقصدها ، فانطلقوا بها يسابقون الريح ، حتى إذا

---

(١) المحفة : مركب للنساء كالهودج ، والسرير يحمل عليه المسافر .

بلغوا مكاناً خلا من الناس ، أسرع أحدهم فكمّ فمها ، وقيد يديها ورجليها فى سرعة البرق ، ثم أمر صاحبيه أن يسرعا ، واستمر ثلاثتهم يعدون حتى جاوزوا أرباض المدينة ، وأدركهم الليل فلم يستريحوا . ولما ظهرت تباشير الصباح غيَّروا أزياءهم ، ولبسوا لباس الجنود ، ووقفوا عند قلعة رومانية قديمة، تسمّى « برج الروم » كانت سجناً سياسيًّا لأعداء سيف الدولة ، وقابل كبيرهم صاحب السجن وقال له :

— لقد أحضرنا إليك اليوم فتاة هى أشد خطراً على الدولة من الروم ، وهى جاسوسة ماهرة ، تستعين بجمالها على استهواء الرجال واستخراج أسرارهم من مكامنها ، ثم الإفضاء بها إلى الروم . وقد حيَّرتْ مولاى سيف الدولة ، وأقضَّتْ مضجعه ، وكان كلما طاردها، أو حاول القبض عليها فرّت من بين أصابعه كأنها طيف خيال ، والذى نخشاه أن تستبيك هذه المرأة بجمالها، أو تستهويك بفنونها ، فاحذر يا خالد ! فإن رقبتك لن تكفى سيف الدولة فى الانتقام منك . وقد تقول لك إنها بنت فلان العظيم ، أو أخت فلان الكبير ، أو إن زمرة من الأشقياء اختطفتها ، أو إن أبا فراس أو غير أبى فراس سيبحث عنها ، ويعاقب كل من له يد فى اختطافها وسجنها . قد تقول لك كلاماً كثيراً وهذراً كثيراً ، فلا تتزعزع واثبُت ، واعلم أنك أمام أخبث امرأة فى هذا الوجود ، أفهمت ؟

ــ فهمت وسأضعها فى غرفة منفردة ، وأصمُّ أذنى عن سماع حديثها وتوسلاتها .

ــ احذر يا خالد واثبت ، فإنها ساحرة فاتنة .

ــ لم يُبق منى الهرَم شيئاً يستجيب للسحر والفتنة .

ثم انطلقوا راجعين فى أزياء الجنود، وما بلغوا حلب حتى قابلوا غالباً التميمى ، فمنح كل واحد منهم ثلاثمائة دينار .

انفردت نجلاء بحجرتها ، وحينما دخل عليها خالد الشمّاخ يحمل بعض الطعام سألته :

ــ أين أنا ؟ فضحك ساخراً وقال :

ــ فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية .

ــ أأنت زعيم عصابة اللصوص الذين اختطفونى .

ــ حقًّا لقد سرقوا كنزاً من كنوز الدولة ثميناً .

ــ أتعرف من أنا ؟

ــ أعرف أنك هنا وهذا يكفينى .

ــ أنا نجلاء بنت الخالدىّ ، أخت محمد وسعيد كاتبى سيف الدولة وشاعريه .

ــ يظهر أن فى المسألة شعراً وخيالا .

ـ أنا صديقة الحارث أبي فراس قائد جيوش سيف الدولة .

ـ وقد عرفتِ منه كل أسرار الجيش .

ـ أين يـُذهب بك يا شيخ ؟ انظر إلىّ .

ـ أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق !

ـ إن سيف الدولة يبحث عني ، ولو عرف أني في حوزتك لقتلك ،

ـ أعرف أنه كان يبحث عنك كثيراً .

ـ بالله لا تراوغني ، واستمع لحديثي بعقل وروية . لقد اختطفني لصوص أدنياء ، وأدخلوا عليك الغفلة في أمري ، فأسرع واذهب بي إلى حلب لتنل أعظم جائزة . وضاق صدر خالد ، ونظر إليها مغضَباً وقال :

ـ اسمعي يا فتاة ، إنني رجل من صخر لا يؤثر فيه مال ، ولا يستهويه جمال ، وقد خلقني الله آلة جامدة تعمل ماطـُلبَ إليها عمله ، فلا تتعبي نفسك في الباطل ، ودعي مكرك ومحَالك[1] وادعاءك أنك بنت فلان ، أو أخت فلان ، وسيصل إليك الطعام مع أحد جنودي ، لأنني عزمت على ألا أراك مرة أخرى . ثم انصرف مقطباً ، واستسلمت نجلاء لأحزانها بعد أن يئست من وسائل النجاة ، وتوالت الأيام والليالي وهي لا تجد إلى الأمل منفذاً .

وكان أبو فراس قد برّح به الحزن لا يجد بعض الراحة إلا عند زيارة

---

(١) المحال : المكر والحذق ، من الحول والحيلة .

صوفيا ، التى كانت كثيرة العطف عليه ، شديدة الألم لما حلّ به ، وبينما هو فى قصره ذات صباح إذا خادمه يعلمه بقدوم صوفيا ، فدهش لأن صوفيا كانت شديدة التحرج ، مبالغة فى التصون . فأسرع يحيّيها ويرحّب بها ، ولكنه لحظ فى وجهها آثار الاضطراب فأدنى منها كرسيًّا فجلست ، وهى تلهث متعبة مكدودة ، ثم همست فى أذنه تقول :

— علمت السرّ . فوثب أبو فراس صائحاً :

— أى سرّ يا صوفيا ؟

— سرّ الجريمة ، سرّ اختطاف نجلاء ، فانكبّ على يديها يقبلهما وهو يقول :

— أنت ملك كريم يا صوفيا ، أنت ملك كريم . بحقك أسرعى ونبئينى : ألا تزال بين الأحياء ؟

— إنى كنت واثقة بكرم الله ولطفه فى قضائه .

— قولى يا صوفيا قولى .

— فى هذا الصباح حضر جندى إلى مصنع أبى ليشترى سيفاً ، فعرض عليه سيفاً رخيص الثمن ، فأبى فى كِبْر واعتزاز ، وأصرّ على أن يشترى سيفاً بثلاثين ديناراً ، فعجبتُ للأمر وأردتُ أن أعرف خبيئة هذا الجندى البائس ، فقلت له : إن هذا السيف غال على مثلك ، إنه لا يشتريه إلا كبار القواد . وتماديتُ فى السخرية منه ، والازدراء عليه ، فاشتدّ

غضبه وقال : أتظنين « بشراً الحزامى » فقيراً يا فتاة ؟ ثم مدّ يده إلى جيبه فأخرج منه ما يزيد على مائة دينار ، فتأجج فىّ الميل إلى معرفة مصدر هذا المال . وحينئذ عُدْتُ إلى غريزة النساء ، فضحكت ثم قلت : حقًّا إن هذا السيف الجميل لا يحمله إلا الفارس الجميل ! فتيقظ غروره ، وظن أن المال اجتذبنى إليه ، فقرُب منى ، وهَمَس فى أذنى بكلمات الحب الوضيع ، فلم أغضب ، وأشرت إليه أن يتبعنى . وَدهِش أبى وُبهِر ، ولكنى غمزتُ له بعينى فسكت وأطرق . وذهبنا إلى الغرفة لنتحدث فقال : إنى أضع كل مالى تحت قدميك ، فأظهرتُ الفرح وقلتُ : هذا مال كثير ، من أين أتيت به ؟ فسكت مطرقاً ، فقلت له : لابد أن تخبرنى يا حبيبى . إننا سنكون زوجين ، فكيف تُخْفى عنى سريرة نفسك ؟ ألا تعلم أننى سأعترف لك قبل زواجنا بكل شىء ؟ سأقول لك إنى كنت أحب ابن عمى ، وسأقول لك إن هذا العقد الذى أزين به جيدى لم أشتره ولكنى سرقته فى ليلة عرس لأحد الأمراء ، وسأقول لك كثيراً وكثيراً . واعلم أنى رومية أبيح لزوجى أن يكون لصًّا ، وأبيح له أن يكون قاتلا ، ولكنى لا أبيح له أن يكذب علىّ ، فإن طمعتَ فى زواجى فاكشف لى عما فى نفسك كأنى أقرؤه فى كتاب . قل يا بشر من أين هذه الدنانير ؟ فقال : هذا المال له قصّة يا حبيبتى . فقلت لابدّ أن تكون قصّة بطولة وإقدام . فتردّد طويلا ثم زفر وقال : طلب إلينا غالب التميمى يوماً أن نختطف فتاة من بنات أثرياء المدينة ، فاختطفناها ،

وأعطى كل واحد منا ثلاثمائة دينار . فصحت : مَرْحى بزوجى البطل ! ورميتُ نفسى عليه أملأ وجهه تقبيلا ، ثم قلتُ وقلبى يرتجف : وأين وضعتم الفتاة ؟ فقال : وضعناها فى برج الروم . فقلت : فى شماتة لا بد أن تكون ماتت وذهبت إلى الجحيم . ثم سألتُه : من كان معك ؟ فقال : جنديان هما : حسّان بن على ، وعقيل الحارث . — وأين الرجل ؟

— مصفد بالقيود فى المصنع ، فقد دعوت أبى وصنّاع المصنع فتكاثروا عليه وأحكموا وَثاقه . فوثب أبو فراس وحمل صوفيا بين ذراعيه ، وقد ذهب بعقله الفرح ، وأخذ يدللها كما يدلل الطفل ويقول : أنت الرحمة فى جسم ، والحنان فى شخص ! هذه هى المرة الثانية ، يا صوفيا التى تنقذين فيها حياتى وحياة نجلاء . ثم خرج مسرعاً من الدار .

أسرع أبو فراس إلى سيف الدولة ، وأخبره بكل ما سمعه ، وأرسلت الجنود فقبضوا على بشر الخزامىّ وحسان بن على وعقيل الحارث . أما غالب التميمى فلم يقفوا له على أثر ، لأن مارينا أسرعت إلى داره فأخبرته بظهور الجريمة ، وحثته على الهرب .



٩

طار أبو فراس إلى « برج الروم » على جواده ، كأنه القدر المحتوم ، ووراءه خادمه أسامة ، وبعد ساعة لمح على الأرض أثر جواد يسلك الطريق نفسها ، فثارت شبهاته وظنّ الظنون ، وخاف أن يكون أعداؤه قد سبقوه إلى نجلاء لنقلها إلى مكان آخر ، فوكز جواده مستحثًّا فانطلق ينهب الأرض كأنه البرق الخاطف ، أو الخيال الطائف ، وبعد ساعتين ظهر شبح فارس ، ترفعه النجود ، وتخفضه الوهاد ، فصاح بجواده وزجره زجر المتيئس ، وألهب جنبيه بالسوط ، حتى إذا دنا منه وأحسّ الفارس قربه حاول الفرار فكبا به فرسه ، فقبض عليه أبو فراس وتأمل وجهه فإذا هو فهد خادم قرعويه ، فسأله عن طِيّته ، فتلعثم وتردّد ثم قال بعد أن بلع ريقه مرتين :

— أظن أنني لم أكن أسيراً فارًّا ، وأعتقد أن لأى إنسان الحق فى أن يذهب فى أرض الله متى شاء وحيث شاء دون أن يُرهَق بسؤال .

— صحيح ، إلاّ إذا حامت الشبهة حول شخص يريد الفساد فى الأرض .

— وأى فساد يخشى من فارس يمتطى جواده ليسافر من بلد إلى بلد آخر ؟

— الفساد فى الغرض لا فى السفر ، وفى النية لا فى الوسيلة ، فإلى أى بلد أنت ذاهب ؟

— إلى « بالس »

فالتفت أبو فراس إلى أسامة وقال : فتّشه يا أسامة . ففتشه فلم يجد معه شيئاً ، ثم أعاد التفتيش فلم يعثر على شىء ، وهنا أخذ فهد يسخر منه فى شماتة لاذعة ، فغضب أسامة ولطمه على وجهه فطارت عمامته عن رأسه ، فأسرع فهد فى ذعر واهتمام إلى التقاط العمامة ، ولحظ أبو فراس اهتمامه فصاح : هات العمامة يا أسامة. فلما ناوله إياها دقق البحث فيها ففطن إلى أن أحد جوانب القلنسوة أغلظ من باقيها ، ففكّ خياطته فإذا ورقة بين الظهارة والبطانة كتب فيها : « من قرعوية قائد جيوش الأمير سيف الدولة ، إلى خالد الشمّاخ، إذا بلغتك رسالتى هذه ، فأطلق السجينة نجلاء الخالدية ، وابعث بها مع رسولنا فهد »

فلما قرأ أبو فراس الرقعة احتدم وجهه بالغضب ، وأمر أسامة أن يقيّد رجلى فهد ، ويُردفه وراء فرسه ، بعد أن يربطه بالحبال إلى السرج . فأحكم أسامة وثاقه ، وكان فى أشد الحنق عليه والبغض له . وبعد أن ركبا خطر لأسامة وهما يعدوان فوق قمة أكمة ، أن يقطع الحبال التى تربط الأسير بالفرس ، ليستريح منه ، ولتستريح الأرض من شره ، فأخرج سكينه فى خفية وسرعة ، وقطع الحبال ، ورمى السكين فسقط

المسكين يتدهدهُ من صخرة إلى صخرة ، حتى وصل إلى الهاوية مهشّماً ، فالتفت أبو فراس مذعوراً غاضباً . وصاح : ويل لك يا أسامة ، أأنت فعلت هذا ؟

— لا يا سيدى ، إن الشرير هو الذى قتل نفسه ، ويظهر أنه قطع الحبال بشىء كان معه ، وقد أخطأت إذ لم أقيد يديه أيضاً .

— أرجو أن تكون صادقاً . . . أسرع فقد خفّ فرسك .

وبعد ساعات وصلا إلى « برج الروم » ، فترجّل أبو فراس ووثب إلى داخل البرج قلِقاً يساوره اليأس والأمل ، فلقيه خالد الشمّاخ ، ومال ليقبّل يده ، ولكنه جذبها منه وقال : أين سجينتك نجلاء ؟ فأجاب مضطرباً : فى الطبقة الثانية يا سيدى . فانطلق أبو فراس كما ينطلق السهم حتى بلغ غرفتها فأطلّ فإذا كومة من الثياب ملقاة على الأرض ، لا تهزّها حركة . فتأمل فإذا فتاة ساجدة وقد طال سجودها ، فهتف وهو يرتعد : نجلاء ! نجلاء ! فرفعت رأسها فأضاء الغرفة نور وجهها الوضاح ، ونظرت فإذا أبو فراس : فوثبت من صلاتها فى شبه جنون ، وهى تضحك وتبكى وتصيح . ثم ألقت بنفسها عليه والدموع تمتزج بالدموع ، وبعد لأى قال أبو فراس وهو يلهث : كيف اختطفوك يا نجلاء ؟ لقد اختطفوا روحى وعقلى وقلبى .

— إننى لم أجزع لاختطافى كما جزعت للبعد عنك ، فلو أنهم كانوا

اختطفوك معى لعشنا هنا عيشة هنيئة . فضحك أبو فراس وهو يقول :

ــ إنى لا يختطفنى إلا جيش جرّار أيتها البلهاء . أرأيت كيف يعمل أعداؤنا على تفريقنا ؟ أرأيت كيف ينصبون لنا الحبائل ؟ فمالت إليه وهى تقول :

ــ من صاحب هذه المكيدة الجديدة ؟ أتظنه قرعويه ؟

ــ أنا فى حيرة . إن الذى نفذها جندىّ يدعى غالباً التميمىّ ، ولكنى لا أعلم لمن كان يعمل . وقد أدركنا فى الطريق فهداً خادم قرعويه ففتشناه فوجدنا معه رقعة من سيده يأمر فيها السجان بإطلاقك . فهل يدل هذا على أنه واضع المكيدة ؟

ــ لا . لو كان صاحب المكيدة ما مدّ فيها إصبعه هكذا علانية ، وإنما أراد بالإسراع إلى تخليصى أن ينال عندى حظوة ومنزلة . قل لى . متى نستريح يا صاحبى من هذه الدسائس ؟

ــ حينما نتزوج .

ــ ومتى نتزوج ؟

ــ حينما لا تبقى قدم رومية فوق أرض عربية .

فتنهدت نجلاء وقالت :

ــ لقد أبعدت كثيراً يا سيدى .

ــ لم أبعد ، وإن سيفى ليحدثنى بأن نصر الله قريب .

وهنا دخل خالد الشماخ حزيناً ذليلا ، بعد أن علم كيف خدعه اللصوص ، وضحكوا من ذقنه ، فصاح به أبو فراس :

– لا تثريب عليك يا صاحبي ، فقد خدع الأشرار قبلك من كان يظن أنه أذكى منك .

– لقد دخلوا علىّ يا مولاى فى ثياب الجنود فما شككت فى صدق قولهم .

– لقد كانوا جنوداً حقًّا ، وإنى أعلم أن إخلاصك للدولة ، وجمودك فى أداء الخدمة حالا بينك وبين الشك والتردّد . وهنا قالت نجلاء :

– لقد كان خالد فيما وراء قيامه بواجبه كريماً شريفاً .

وبعد أن استراح أبو فراس قليلا ، ركب جواده ، وأركب نجلاء فرس فهد ، وانطلقا يسابقان الريح حتى طلعا على حلب عند طلوع الشمس . وسرت البشرى فى المدينة بعودة نجلاء . وأقبل العظماء والأدباء لتهنئتها ، وتوافد على دارها كرائم النساء يعلنّ السرور ، ويتوقعن أن يسمعن حديثاً عجباً عن اختطافها العجيب . ووصل الخبر إلى رملة فزاد حزنها ، وتأججت فى قلبها نار الغيرة من جديد ، وكاد يمسها ما يشبه الجنون .

وكان قرعويه بين القادمين لتهنئة نجلاء، فلما وصل إلى باب الدار تقدّم أسامة الخبيث نحوه وقد أراد التشفى منه فقال فى أدب وإجلال :

لقد عثرنا على فرس لمولاى فى الطريق يرعى العشب وليس معه فارس ، ورأينا بجانبه هذه القلنسوة . ومدّ بها يده نحو قرعويه ، فظهر منها الجانب الذى نُقِضَتْ خياطته ، فنظر إليها قرعويه والحقد والغضب يأكلان قلبه وقال وهو يبتسم ابتسامة الأسد : لعل حادثاً وقع للفارس يا أسامة ، سننظر فى كل هذا فيما بعد .

ولاقت نجلاء قرعويه بترحيب ، ورآها أبو فراس فحاكاها فى ريائها وهو يغمغم[1] بقول أبى تمام :

النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وصفا العيش لأبى فراس ونجلاء ، ومرّت شهور وشهور وهما فى ظلال النعيم يعبثان كما يعبث الطفلان المدلّلان ، فلم يكن يفرّق بينهما إلا غزوات الروم . فقد غزاهم سيف الدولة فى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وكان يقود أعظمَ كتائبه فارسه المُعْلَم أبو فراس ، فأوقع بالروم فى « سَروج » ثم عرّج على « مرعش » فأعاد بناء قلعتها وشتّت جموع الروم ، وأسر أبطالهم .

وما كادت تطلّ سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة ، حتى اتجه سيف الدولة بجيشه الزاخر ، وأبو فراس فى طليعته ، نحو « مَلطيّة » فهزم الرّوم شرّ هزيمة ، ووقع فى أسره قسطنطين فوكاس ابن ملك الروم .

---

(١) غمغم الكلام : لم يبينه .

وفى هذه الموقعة يقول أبو فراس :

وولّى على الرسم الدُّمُستُقُ هارباً   وفى وجهه عذرٌ من السيف عاذرُ[١]
فدَى نفسه بابن عليه كنفسه   وللشدّة الصمّاءِ تُقنَى الذخائر[٢]

ولم تمض على هذه الغزوة إلا سنة حتى انقض جيش سيف الدولة على جيش الروم عند حصن « الحَدَث » . وكان الروم فى نحو خمسين ألفاً . فهزمهم وأسر صهر الملك وحفيده وكثيراً من القواد ، وأبلى أبو فراس فى هذه الموقعة خير البلاء . حين يقول :

وحَسْبِى بها يوم الأجيدب وقعة   على مثلها فى العز تُثْنَى الخناصرُ[٣]
عَدَلْنا بها فى قسمة الموت بينهم   وللسيف حكمٌ فى الكتيبة جائر
فلم يبق إلا صهرُه وابن بنته   وثوّر بالباقين من هو ثائر

وكان يعود بعد كل غزوة وأعلام النصر تخفق فوق رأسه لينعم بالحياة هنيئة رغيدة إلى جانب من يحب ، وكانت نجلاء تلوّح بزواجهما بين الصَّبْوة[٤] والحياء ، فلا تجد منه إلا إشارة لطيفة تدعوها إلى الصبر والانتظار .

وفى آخر سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، عزم سيف الدولة على ضرب الروم فى بلادهم ، فعقد الراية لأبى فراس على القسم الأعظم من جيشه ،

---

(١) الدمستق : لقب كان لقائد جيش الروم .
(٢) الشدة الصماء : الخطب الفادح ، والداهية النكراء ، والنازلة الثقيلة .
(٣) أمر تعقد عليه الخناصر ، أو تثنى عليه الخناصر ، أى يهتم به . ويعتد به
(٤) الصبوة : الحنين والشوق .

وسار الجيش ، ودمر كثيراً من الحصون ، وأدلى قائد الروم لسيف الدولة وخدعه ، حتى انتهى جيشه إلى « خرْشنة » فدهمه عندها بجمع لا يحصى ، فحاول التقهقر ولكنه رأى أن الروم سدوا عليه الطرق والمضايق . وكان قرعويه بجانب أبى فراس ، وكان الخبيث يعرف منفذاً واحداً أغفله الروم ، فرأى الفرصة وقد سنحت للقضاء على أبى فراس ، فأرشده إلى منفذ آخر يسمى « مغارة الكحل » فانطلق أبو فراس نحوه بجواده فسقط عليه الروم من كل جانب ، فلم يستطع عن نفسه دفعاً ، فاقتادوه أسيراً ، وفرّ قرعويه مع سيف الدولة فى ثلاثمائة غلام ، بعد أن فقد رجاله وسلاحه ، وكانت هزيمة منكرة .

اقتاد الأعداء أبا فراس إلى قلعة « خرشنة » ، فسار بينهم فوق جواده مرتفع الرأس ، ثابت القلب ، يتحدّى الكوارث ، ويسخر من طوارق الأيام ، وكانت القلعة رومانية البناء ضخمة حصينة شاهقة ، تشرف من أكمة على نهر الفرات . فأدخلوه بها والسرور يملأ جوانحهم ، والزهو ينفخ بخياشيمهم ، لأنهم ظفروا بصقر العرب وفارسهم المغوار الذى طالما شتت جموعهم وفزّع قلوب شجعانهم . ودخل أبو فراس حجرته المظلمة الضيقة المنافذ وهو يقول :

إن زرتُ خرشنة أسيراً — فلكم حللتُ بها مُغيرا
من كان مثلى لم يبت — إلا أميراً أو أسيرا
ليست تحلُّ سَراتُنا — إلا الصدور أو القبورا

وبقى فى الأسر أكثر من شهر ، وهو فى كل يوم يفكر فى الفرار فلا يجد إليه من سبيل . وكان يخرج فى أصيل كل يوم ممتطياً جواده ليدور به فى فناء القلعة ، وليطلّ على الفرات ، فكان إذا أطلّ عليه رأى بينه وبين القلعة ما يزيد على خمسمائة ذراع ، فيحار بصره ويدركه اليأس . ولكن طائفاً من خيال نجلاء كان يبدد هذا اليأس ، ويسخر من هذا الارتفاع الشاهق ، ويزعم أن للحب أجنحة يطير بها العشاق إلى من يحبون ، كان طيف نجلاء لا يفارقه فى صحوه ومنامه ، وكان اسمها لايفترُ عنه لسانه ، وكانت ذكراها لا ترحل عن فكره ولا تَرِيم . رآها مرة فى نومها وهى باكية غاضبة ، فلما حاول الدنوّ منها نفرت منه ، وقالت : إن الذى لا يستطيع أن يقرُب منى فى اليقظة ، ليس أهلا لأن يقرب منى فى المنام ! فهبَّ من نومه جزعاً حزيناً ، وخرج إلى فناء القلعة فامتطى جواده ، وصمم على الفرار ، ولو لقى فى سبيله الموت . فوقف بفرسه على صخرة ونظر تحته فرأى الفرات من بعد سحيق وهو يمور ويزمجر كانه الأسد ينتظر فريسته . فنزل وعصب عينى الفرس ، ثم امتطاه وجمع قوّته ، واستحثّ عزيمته ، واستنجد بكل ما فى نفسه من أمل ، ونخس الجواد ، وصاح به صيحة يعرفها ، فوثب كأنه النسر المنقضّ ، وبقى فى الهواء زمناً ، وأبو فراس فوقه ، وقد طوّق عنقه بذراعيه كأنه الحرباء فوق فرع شجرة فى يوم عاصف ، حتى سقط فى النهر فمات الفرس من شدة الصدمة ، وأفاق أبو فراس من ذهوله ، فرأى الموج

تواثب حوله ثائراً صاخباً ، فاسترد عقله وعزيمته ، وأخذ يسبح كما يسبح الحوت المذعور ، وحراس القلعة ينظرون إليه من أعلاها مشدوهين مأخوذين ، وقد قيّدت الحيرة أرجلهم ، وطوّحت المفاجأة بصوابهم ، فلما بلغ الشاطئ انطلق يعدو كالظليم . ويشاء القدر أن يمرّ به فى هذه اللحظة فارس من الروم ، يمشى الهوَيْنى ، فيثب عليه أبو فراس كالذئب الجائع فيسقطه عن جواده ، ثم يعلوه ويندفع به نحو حلب ، وقلبه يكاد يطير من بين جنبيه، واستمر يُغِذُّ[1] السير حتى بلغ المدينة ، فهبّت لاستقباله والإشادة ببطولته . وكان ذكره حديث المجامع ، ووصف فراره ملء الأفواه والمسامع . وسعى إلى داره سيف الدولة فى جمعٍ من رجاله وبينهم قرعويه ، فمدّ إليه سيف الدولة ذراعيه ضاحكاً باكيا ، مثنياً على بطل العرب وصاعقة الروم .

وذهب أبو فراس للقاء نجلاء . وهنا نضع القلم عاجزين . فقد يُفْسِد الكلام وصفَ ما لا يستطيعه الكلام . ومال أبو فراس على أذن نجلاء هامساً : الآن نستطيع الزواج يا حياتى ، فإنى أخشى ألا تطول حياتى . ففزعت نجلاء لهذا التطيّر ، وعنّفته فى دُعابة ودلال ، غير أنه لم يمض إلا أيام حتى أقيمت معالم الأفراح ، وتزوج زين الأمراء بأجمل بنات حواء .

---

(١) أغذ السير : أسرع .

١٠

حزن قرعويه وسقط في يده وخاب أمله، وعاش أبو فراس مع زوجه نجلاء في أمن وسعادة ، يرفّ فوقهما جناح الحب الهنيء ! وكانت صوفيا تكثر الزيارة لهما، وتشاركهما في كثير من صنوف البهجة والسرور. وأقبلت أمه من منبج بعد طول الفرقة لتنعمَ بقرب ابنها البطل . وبعد سنة وضعت نجلاء طفلة بارعة الحسن ، سمتها « فوزًا » لأنها كانت تشعر حقًّا بحلاوة الفوز بحبيبها ، بعد أن وقفت الحوائل طويلا بينهما .

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، زحف الروم إلى مدينة حلب نفسها . فاشتد الذعر والقلق ، وقام أبو فراس يدعو إلى الغزو والجهاد ويصيح :

كيف يُرْجَى الصلاح من أمر قوم ضيَّعوا الحق فيه أيَّ ضياع ؟
فمطاعُ المقال غيرُ سديد وسديدُ المقال غيرُ مطاع

ونهض مع سيف الدولة على رأس جيش قليل العدد لا يزيد على أربعة آلاف ، وكان جيش الروم يبلغ الثمانين ألفاً مجهزاً بالعُدد الحربية ، وآلات التدمير ، والنار اليونانية ، والدبابات الهائلة . والتقى الجيشان بالقرب من منبج . ووثب أبو فراس على أعدائه لا يهاب

الموت ، ولا يرهب العدد العديد . وما زال يضرب باليمين وبالشمال طول يومه ، حتى تحطم سيفه، وتمزّقت درعه ، ولما نَفِدت طاقته ، وأصابه سهم فى فخذه كاد يستنزف دمه ، تكاثر عليه الروم فقبضوا عليه ، بعد أن أعياهم قتاله . ونجا سيف الدولة بنفسه إلى بالس . وهى مدينة بين حلب والرّقّة على ضِفّة الفرات .

وقع أبو فراس فى الأسر ، وخاف الروم أن يفرّ من أيديهم هذه المرة ، فنقلوه إلى القسطنطينية . ووصلت الأخبار إلى حلب فحزن الناس ، وأقاموا بكل بيت مأتماً . وكانت ثلاثة رءوس تجتمع فى كل ليلة مطرقة حزينة سامدة[1] ، تطيل الإطراق ثم ترتفع وقد شخصَتْ عيونها إلى السماء ، وانطلقت ألسنتها بالدعاء والتوسل ، هذه هى : رءوس نجلاء وسخينة وصوفيا .

وابتهج قرعويه لأسر عدوه ، وعمل على أن يفسد بينه وبين سيف الدولة ، وما زال بالرجل حتى أحفظه على ابن عمه ، بعد أن كان له محبًّا وبه كلفاً .

ودخل أبو فراس السجن بالقسطنطينية . وكان حصناً رحيباً يشرف على البوسفور . ولم يكن يشغل باله إلا نجلاء وابنته فوز . وأساء إليه الروم أول الأمر ، وخشُنوا فى معاملته ، فكان لا يسعده فى وَحدته إلا

(١) سامدة : كالغافلة الساهية من الحزن والتفكير .

الشعر يرسله مع أنات الحنين . وكان يبعث إلى ابن عمه سيف الدولة بطويل القصائد يستحثه على افتدائه ، ويصف إليه سوء حاله . وهى تلك القصائد الرائعة ، التى فاز بها الأدب العربى فى هذه الحقبة . فطالما صاح بابن عمه فى ظلمة الليل البهيم وهو يقول :

دعوتك للجفن القريح المسهد ... لدىّ وللنوم القليل المشرّد
وما ذاك بخلا بالحياة وإنها ... لأول مبذول لأول مجتدى
وما زلّ عنى أن شخصاً معرّضا ... لنبل العدا إن لم يصب فكأن قد
ولكننى أختار موت بنى أبى ... على صهوات الخيل غيرَ موسَّد
نضوتُ على الأيام ثوبَ جلادتى ... ولكننى لم أنضُ ثوب التجلّد
فمن حسن صبر بالسلامة واعدى ... ومن ريْب دهر بالردى متوعّدى
فمثلك من يُدْعى لكل عظيمة ... ومثلى من يُفدَى بكل مسوَّد
تشبّثْ بها أكرومةً قبل فوتها ... وقم فى خلاصى صادق الوعد واقعد
فإن تفتدونى تفتدُوا شرف العلا ... وأسرعَ عوّاد إليها معوّد
يُطاعِن عن أعراضكم بلسانه ... ويضرب عنكم بالحسام المهند
متى تخلف الأيامُ مثلى لكم فتًى ... طويلَ نجاد السيف رحبَ المقلَّد
ولا وأبى ما ساعدان كساعد ... ولا وأبى ما سيّدان كسيّد
وإنك للمولى الذى بك أقتدى ... وإنك للنجم الذى بك أهتدى
وأنت الذى بلّغتنى كل رتبة ... مشيتُ إليها فوق أعناق حسّدى

وقد يغلبه اليأس فيصيح :

هل تعطفان على العليل ؟ لا بالأسير ولا القتيل
باتت تقلّبه الأكفُّ سحابةَ الليل الطويل
فقد الضيوفُ مكانه وبكاه أبناء السبيل
وتعطلت سُمْر الرما ح ، وأغمدت بيض النّصول
يا فارجَ الكرب العظيـ م وكاشف الخطب الجليل !
كن يا قويُّ لذا الضعيـ ف ، ويا عزيز لذا الذليل
قرّبه من سيف الهدى فى ظل دولته الظليل
لم أرو منه ولا شفيـ تُ بطول خدمته غليلى
ولئن حننتُ إلى ذَرا ه لقد حننت إلى وَصول
لا بالقطوب ولا الغضو ب ولا الكذوب ولا الملول
يا عُدتى فى النائبا ت وظُلّتى عند المقيل !
أين المحبةُ والذما مُ وما عدتَ من الجميل ؟

وطالما ثارت نفسه على الناس فغمغم يقول :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ؟ ومن أين للحر الكريم صحابُ ؟
وقد صار هذا الناس إلا أقلّهم ذئاباً على أجسادهن ثياب
تغابيت عن قوم فظنوا غباوتى بمفرِقِ أغبانا حصًى وتراب
ولو عرفونى بعضَ معرفتى بهم إذاً علموا أنى شهِدت وغابوا

إلى الله أشكو أننــا بمنــازل تحكّمُ فى آسادهــن كلاب
تمرّ الليالى ليس للنفع موضــع لدىّ ، ولا للمعتفين جنــاب

وكثيراً ما استطال مدة أسره دون مُنقذ أو مُعين فهتف :

أقمت بأرض الروم عامين لا أرى من الناس محزوناً ولا متصنّعــا
إذا خفتُ من أخوالى الروم خُطّة تخوّفت من أعمامى العرب أربعا
وإن أوجعتنى من أعادىّ شيمة لقيتُ من الأحباب أدهى وأوجعا
ولو قد رجوت الله لا شىء غيره رجعت إلى أعلى وأمّلت أوسعا
لقد قنِعوا بعدى من القطر بالندى ومن لم يجد إلا القنُوعَ تقنّعا
وما مرّ إنسان فأخلف مثلَــه ولكن يرجّى الناس أمــراً موقّعا
تَنكّر سيف الدين لمــا عتبته وعرّض بى تحت الكلام وقرّعا
فقولا له من صادق الود إنــنى جعلتك مما رابنى الدهر مفزَعا
ولو أننى أكننته فى جوانحى لأورق ما بين الضلــوع وفرّعا
فلا تغترر بالناس ما كلّ من ترى أخوك إذا أوضعت فى الأمر أوضعا
فلله إحسانٌ عــلىّ ونعمــة ولله صنــع قد كفانى التصنّعا
أرانى طرق المــكرمات كما أرى عليّا وأسمانى على كل من سعى
فإن يك بطءٌ مرة فلطالمــا تعجل بى نحو الجميل فأسرعا
وإن يَجفُ فى بعض الأمور فإننى لأشكره النعمى التى كان أودعا
وإن يستنجد الناس بعدى فلم يزل بذاك البديــل المستجد ممتعــا

وقد يطالعه خيال نجلاء فينشد :

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى   وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر
تكاد تضىء النار بين جوانحى   إذا هى أذكتها الصبابة والفكر

ويحن إلى أمه فيقول :

لولا العجـوز بمنبج   ما خفت أسباب المنيـه
ولـكان لى عمـا سأل   تُ من الفدى نفس أبيه
لكن أردت مرادهـا   ولو انجذبت إلى الدنيـه
أمست بمنبـج حـرة   بالحزن من بعـدى حريه
لا زال يطرُق منبجـاً   فى كل غاديـة تحيـه
فيها التـقى والدين مج   موعان فى نفس زكيـه
يا أمتا لا تحـزنى   وثقى بفضـل الله فيـّه
يا أمتّا لا تيـأسى   لله ألطـاف خفيـّه
أوصيك بالصـبر الجمي   ل فإنه خـير الوصيـه

وحينما نفِد صبره ، وضاق صدره بالأسر ، حاول الفرار ذات ليلة وكاد يُفْلِت ، لولا أن هبّت فجأة عاصفة هوجاء ، أيقظت الحراس النائمين . وشاع خبر محاولته الهرب فى المدينة ، وتحدث الروم من جديد بشجاعة الفارس العربى وجرأته ، وأخبر ملك الروم زوجه « تيوفانو » بالحادثة ، وأفاض فى إطراء أبى فراس ووصف وسامته وشجاعته ، وأنه

مثال رائع للبطولة العربية . فتشوقت إلى رؤيته . وكانت تيوفانو آية من آيات الجمال الإغريقى : تزوجت أول أمرها برومانوس ملك الروم ، وكان فتى جميل الطلعة نضير الشباب ، ولكنها لم تنعم بحبه طويلا حتى طواه الموت . وجلس بعده نيقفور على سرير الملك ، واستهواه جمالها ، فما زال يتقرب إليها ويتوسل ويستعطف ، حتى تزوجته على كره منها .

وما تبلج الصباح حتى خرجت تيوفانو إلى السجن ، لتشاهد ذلك الفتى العربى ، الذى أثار الناس حوله ضجة من المديح ، وكادوا يلحقونه بآلهتهم القدماء . وما كادت تقف أمام أبى فراس حتى رأت تمثالا أبدع الخالق القدير تنسيقه للقوة والبطولة ، ورأت الشهامة العربية والشمم القرشىّ فى وجه لم تستطع الوقائع والأهوال واشتباك السيوف أن تمسّ شيئاً من وسامته ، فخطر بنفسها خاطر يشبه الجنون : لم لا يكون هذا الفارس الجميل قائداً من قواد الروم ؟ ولم تـُحرَمُ القسطنطينية هذه الدرع الحصينة التى هى أصلب من أسوارها ، وأقوى من قلاعها ؟ إنه إذا انضم إلى جيش الروم قهر الدنيا وأعاد إلى القسطنطينية المجد القديم . لقد وقع هذا الصقر فى أيدينا فلم لا نتخذ منه قوة إلى قوتنا ، وبازياً لصيد أعدائنا ؟ خطر بنفسها هذا الخاطر فمالت نحو الأسير وقالت :

— ما حالك اليوم يا بطل الصحراء ؟ وكان أبو فراس تعلّم من صوفيا ما يستطيع به أن يفهم الرومية وأن يتحدث بها فى شىء من اليسر فابتسم وقال :





– حال الأسير العانى يا درّة البحار .

– هل فارقت فى حلب حبيباً ؟ فزفر أبو فراس وقال :

– فارقتها ولم يفارقنى خيالها .

– إن فى فتيات الروم من الحسن ما يزهّد فى كل ذات جمال ، وقد جئت أيها الفارس لأفتح أمامك باب الأمل ، ولأبدّد عنك خواطر اليأس ، ولأنقلك من هذه الحجرة المظلمة إلى أعظم قصر بالمدينة .

– كيف يا سيدتى ؟

– إن الأمر بيدك وهو عليك جِدّ يسير .

– لا أفهم ما ترمين إليه .

– سنخلص لك الودّ ونغمرك بمحبتنا ونعمنا إذا رضيت بالحياة معنا وجرّدت حسامك فى صفوف جيوشنا .

– أنا يا سيدتى ؟

– نعم سيجعلك نيقفور قائد جيوش الروم ، وستكون مرتبتك تالية لمرتبته . فضحك أبو فراس وقال :

– يا سيدتى إن العرب لا يبيعون أنفسهم لأعدائهم ولو لاقوا ما هو شرّ من الحِمام . إننا يا سيدتى أبناء الصحراء نبتت أخلاقنا من صخورها ، واتقدت قلوبنا من قيظها وهجيرها . نحن لا نحنّ إلى النعيم إلا فى ظلّ الشرف والكرامة والذود عن الحوْزَة والدفاع عن العقيدة والوطن .

لا يا سيدتى إنى أجد فى الأسر لذة ونعيماً كلما ذكرت أننى لم أصل إلى السجن إلا بعد أن سقطت فى ميدان الشرف والجهاد .

– عجيب أمرك أيها الفتى ، تقبل الدنيا عليك بحذافيرها فتركُلها بقدمك لوهم كاذب وكبرياء معتوهة ؟ !

– إنها العقيدة الراسخة يا سيدتى والخلق العربىّ الذى ارتضعناه من أثداء أمهاتنا .

– تصوّر أنك ستكون القائد الأعظم لجيوش الروم ، وتصوّر أنى سأزوجك إحدى وصيفاتى وهى أجمل امرأة فتحت عليها عين إنسان .

– لو كنت جندياًّ فى جيش العرب ما قبلت أن أكون ملكاً لكم . أما الزواج يا سيدتى فإنى متزوج بمن لا أبيعها بالجنة وملائكتها الأطهار .

– إنك ستظل فى الأسر ذليلا إلى أن تموت دون أن تجرّد سيفاً لنصرة العرب ودون أن ترى لزوجك ظلاًّ .

– السجن أحب إلىّ مما تدعوننى إليه ! فظهر الغضب على وجه تيوفانو وغادرت السجن وهى تغمغم بكلمات لم يفهمها . ولم تزره فى السجن بعد ذلك ، ولكنه لحظ بعد زيارتها تضييقاً من الحراس وعنتاً . واستمر فى السجن أكثر من ثلاث سنين دون أن تُقدّم فدية لإطلاقه .

وقضت نجلاء طوال هذه المدة فى هم مُقعد مُقيم ، لا تجد إلى تخليص زوجها سبيلا ، حتى إذا اشتدّ بها الوجد ، فتحت خِزانتها لتمتع عينيها برؤية أول هدية أهداها إليها ، فأخرجت العلبة الذهبية ،

وكشفت غطاءها ، وأبرزت اللؤلؤة الفريدة ملفوفة بورقتها كما أخذتها من أبي فراس ، وجلست تنظر إليها فى ألم وحسرة ، وقد طافت بها طيوف الماضى البعيد . وبينما هى كذلك إذ دخلت صوفيا ، فأرتها اللؤلؤة ، وأخبرتها بخبرها وبأن قائداً عظيماً من قواد الروم أهداها إلى الأمير سعيد أبى زوجها ، وأن سعيداً أهداها قبل موته إلى ابنه أبى فراس .

فعجبت صوفيا من عظمها وصفائها ، ثم التفتت فإذا ورقة على بساط الغرفة يعبث بها النسيم ، فمدت إليها يدها وبسطتها ، فإذا عليها كتابة بالرومية ، فلما شرعت تقرؤها بدت على وجهها علامات الدهش ، ثم صاحت : نجا أبو فراس ! نجا أبو فراس ! فهزت نجلاء كتفيها فى خشونة وصاحت : كيف ؟ كيف ؟ بالله قولى كيف ؟

ـ اسمعى يا حبيبتى ترجمة ما فى هذه الورقة التى بقيت فى خزانتك أكثر من ثلاث سنوات ، وزوجك يلاقى ذل الأسر وعذاب الهون ، والتى قذفت بها فوق بساط الغرفة تذهب بها الرياح كل مذهب .

ـ ماذا فيها يا صوفيا ؟

ـ فيها ما يأتى : « أنا واسيلوس الأول رأس الأسرة المقدونية وملك الروم ، أقرر بخطى أننى بينما كنت فى « قيصرية » وقعت أسيراً فى يد أمير من أمراء العرب اسمه أبو العلاء سعيد الحمدانى . فأكرمنى غاية الإكرام ، وفك أسرى ، فلم أجد وسيلة لشكره إلا أن أهديه علبة من

الذهب بها لؤلؤة نفيسة ، ليس لها مثيل فى الدنيا إلا لؤلؤة محفوظة بقصرنا بالقسطنطينية ، وإنى آمر كل رومى أن يكرم كل من يحمل هذه الورقة ، ويحمل معها اللؤلؤة ، وأن يجيب مطالبه » .

وما كادت تتم صوفيا قراءة الرسالة حتى رقصت نجلاء من الفرح ، وأقبلت على صوفيا تقبلها ، وتجتذب شعرها ، والدموع تنهمر من عينيها انهماراً . فلما أفاقت من النوبة ، التفتت إليها وقالت : يا صوفيا ! أنت نجم أبى فراس الصاعد ، وملكه الحارس ، هذه هى المرة الثالثة التى تنقذينه فيها . وهنا دخلت سخينة فأخبرتاها الخبر . فكادت تجن من الفرح . ثم قامت نجلاء إلى خزانة أبى فراس وأخرجت منها ثلاثة أثواب ، وأمرت خادمتها أن تأتيها بخيط وإبر . فدهشت صوفيا وقالت :

ـ ماذا تريدين أن تصنعى ؟

ـ أريد أن أقصر هذه الثياب حتى تلائم قدّى لأرتديها وأذهب إلى القسطنطينية لإنقاذ زوجى .

ـ وحدك ! ؟

ـ نعم وحدى ، ولن يذهب أحد معى . إنه كان يستهين بالموت فى حبى ، فلم أهاب الموت فى حبه ؟ هلمّ هلمّ ، قصّرا الثياب فإن الانتظار يكاد يقتلنى . وبعد أن تمّ تقصير الثياب قصّت نجلاء شعرها ، ولبست أحد الأثواب ، ووضعت الثوبين الآخرين مع عشرة أكياس من الدنانير

فى علبة ، وتمنطقت بحزام به خنجران ، وتقلدت أحد سيوف زوجها ، وأمرت أسامة أن يعد لها أسبق جواد فى الإصطبل ، ثم ودّعت سخينة وصوفيا ، وانطلقت فوق الجواد كأنها البرق الخاطف .

ولو حاولنا وصف الطريق ، وما لقيته نجلاء من الجهد والنصب ، ومن عصابات اللصوص بين عرب وروم ، لامتدت القصة وطال حبل الكلام ، ويكفينا أن نقول : إنها بلغت القسطنطينية بعد عشرين يوماً قضتها بين الخوف ولقاء الموت ، وبين اليأس والأمل . فأخذت سمتها نحو قصر الملك ، فقابلها الحرّاس لدى الباب ، وصاح بها زعيمهم وكان له إلمامة بالعربية : من أنت أيها الفتى ؟

— رسول من قبل سيف الدولة برسالة إلى الملك .

— لعله يطلب الهدنة بعد أن دمّرنا عليه حلب .

— إنكم دمّرتم بنيانها ، ولم تدمروا قلوب رجالها . فظهر الغضب على وجه الزعيم وقال : عجيب شأن هؤلاء العرب فإن اليأس لا يعرف إلى قلوبهم طريقاً .

— إن العرب يحاربونكم بإيمانهم ، وأنتم تحاربونهم بدباباتكم ونيرانكم اليونانية

— كفى أيها الفتى الشجاع ، تسلّب من سلاحك وادخل .

فنزعت نجلاء سلاحها ، ودخلت القصر مع المترجم ، حتى وصلت

إلى بهو العرش ، فرأت نيقفور فوكاس جالساً على سريره وحوله الوزراء والقواد ، فأدت تحية الملوك ، وقدمت إليه الورقة ، فقرأها والدهشة تبدو على وجهه . ثم صاح بالمترجم : سل الفتى أين اللؤلؤة ؟ فمدت نجلاء يدها بالعلبة ، فأخرجت منها اللؤلؤة فقال : حقًّا إنها أخت لؤلؤة القصر . ثم اتجه إلى المترجم وهو يقول : هذه الرسالة من مؤسس دولتنا واسيلوس ، وأمره حكم واجب الطاعة ، ويظهر أن الأمير العربى الذى أحسن به ، ووهب له حياته ، كان بطلا كريماً ، فسل الفتى أيها المترجم عما يشاء . فلما ترجم الكلام لنجلاء قالت :

ــ أطلب إطلاق رجل فى أسر الملك ، هو أبو فراس الحمدانى !

ــ لقد طلبت عظيماً يا فتى . إن أبا فراس وحده جيش لُهام ، ولم يهدأ للروم روع إلا بعد أن ظفروا به . اطلب ما تشاء يا فتى غير هذا .

ــ لن أطلب سواه .

ففكر نيقفور مليًّا ثم قال لقواده اذهبوا معه ، وأطلقوا سراح أبى فراس . فخرجت نجلاء وهى لا تكاد تصدق ما سمعت ، حتى إذا وصلت مع القواد إلى السجن واتجهوا نحو غرفة أبى فراس سبقتهم إليها ، فلما رآها صاح : نجلاء ؟ ! نجلاء حبيبتى ؟ ! وانكب عليها كالمجنون يقبّلها ويبكى ، وقد طوقته بذراعيها ، وهى تهتف : وجدت حبيبى ! وجدت حبيبى ! ودخل القواد فعجبوا مما رأوا ، وزاد فى دهشتهم أن الفتى العربى انقلب فتاة رائعة فاتنة ، وبعد لأى هدأ الفتى ، وهدأت الفتاة ،

وأخبرته نجلاء بقصتها ، وبأمر الملك بإطلاقه . فحملها بين ذراعيه كما يحمل البازى العصفور ، وخرج من السجن والقواد أمامه ، وإذا هم لدى الباب رأوا تيوفانو واقفة وهى تبكى ، وحينما لمحت أبا فراس مدّت إليه يدها فى حزن وأسى ، وهى تتمتم : سُحقاً للروم لقد سلّمت سلاحها لأعدائها !

واشترى أبو فراس جواداً ، وانطلق مع نجلاء نحو حلب ، حتى إذا بلغاها هبَّت المدينة للقائهما ، وأصبحت قصة نجلاء حديث كل دار ، وأنشودة كل شاعر ، ولقى أبو فراس أمه فأبكاهما اللقاء ، ولقى صوفيا فعانقها طويلا ، وكان شكره لها أطول من عناقه ، وملأ السرور كل قلب إلا قلب رجل واحد ، هو قرعويه .

١١

ومرت سنة مات فيها سيف الدولة ، فترك موته فى كل نفس لوعة . وولى الملك بعده ابنه أبو المعالى سعد الدولة . وكان فى الخامسة عشرة من عمره ضعيفاً بأعباء الملك كاهله ، فتحكم فيه قرعويه . وكاد يقوم بشئون الملك دونه ، وملأ صدره حقداً على خاله أبى فراس فبرم أبو فراس بدسائس قرعويه ، وأحزنه أن يصبح ابن اخته لعبة فى أيدى الطامعين فى الملك المتوثّبين عليه . فخرج على سعد الدولة فى ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، وضم إليه بعض الجنود ، وسار بهم نحو « حمص » يريد الاستيلاء عليها . وكانت نجلاء وابنته فوز وأمه معه فى هذه الغزوة . وما كاد يعلم قرعوية بنيته حتى أغرى سعد الدولة بإرسال جيش عظيم لمحاربته ، وحينما التقى الفريقان بالقرب من ضيعة تسمى « صدد » استهوى قرعويه جنود أبى فراس بالمال . فانصرفوا عنه ، ودهمه بجيش كثير العُدة والعدد .

وحارب أبو فراس حرب المستميت ، ولكن السهام انصبت عليه من كل ناحية ، وانتاشته السيوف من كل مكان ، فسقط عن جواده مثخناً بالجراح ، فتركه أعداؤه ، وهو يجود بأنفاس قصار ، وانطلقت إليه نجلاء وأمه وابنته حزينات نائحات ، وحملت نجلاء رأسه فوضعته فوق

ركبتها فى رفق وحنان ، وأخذت تناديه وتناجيه بعبارات تقطع القلب ، وتذيب الصخر . وقامت أمه حوله تلطم عينيها حتى أذهبت بصرهما ، وطال بكاء فوز وجزعها ، وامتد نشيجها ، ففتح أبو فراس عينيه وهو يحتَضر ، والموت يزاحم أنفاسه ، ونظر إلى نجلاء ، ثم إلى أمه ثم إلى ابنته وقال فى صوت متقطع .

أبنيّتى لا تجزعى كل الأنام إلى ذهاب
نوحى علىّ بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى إذا ناديتنى وعييتُ عن ردّ الجواب
زينُ الشباب أبو فرا س لم يُمتّع بالشباب !



تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١